العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 57

سنة التأسيس: 1969/2/7

الخميس 12 من ربيع الثاني 1448

الموافق 24 شتنبر 2026

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

bachkarmohammed77@gmail.com

مع هذا العدد خاص

بأربعينية الشاعر المغربي الكبير محمد السرغيني

الشهر الذي ينعتق فيه الناس هرباً من ربقة المكاتب، للالتحاق بأسراب الطيور المهاجرة، فيا لفداحة الغياب حين يتضاعف بالإهمال، غير أن المسؤولية هنا لا تقع على عاتق الأفراد، إنما تتحملها وزارة الثقافة باعتبار أن المرحوم، إرث أدبي قيمته لا تقاس إلا بقامة الدولة، متى نلتحق بالحضارة، ونضاهي اليونان مثلا، انظر كيف نكست الأعلام حين رحيل الشاعر البريطاني بايرون، بل أعلنت حدادا وطنيا ترجه من الأعماق، طلقات مدفعية تخبر الجميع أن الميت شاعر !

مَن يؤلِّف هذا الموت المُضَاعَف ؟

لكَم تطير الأيام بدون أجنحة، سواء كان الإنسان فوق أو تحت الثرى، مع فرق أن زمن الميت ينحصر كما هو مُقيّدٌ على الشاهدة، بين الوفاة الولادة، أما ما تبقى فهو رهين بالأبد، لذلك ربما صاح الشاعر محمد السرغيني رحمه الله: مَن فعل هذا بجماجمكم؟، اتخذ من هذه الصيحة القيامية، عنوانا لواحد من أجمل دواوينه، ولو كان هذا العنوان لا يفضي إلا للعدم، ربما يقصد الشاعر الذي اختبر بحسه الاستشرافي المنجم، أن كل هذه الجماجم التي لا فائدة ترجى من تفكيرها، لن تعدم قيمة حين تغدو فوسفاطا ذات يوم !

يفرد اليوم ملحق «العلم الثقافي»، كل صفحاته لملف تكريمي وتوثيقي للشاعر محمد السرغيني رحمه الله، وقد ساهم فيه ثلة من ألمع الشعراء والأدباء والباحثين المغاربة، سواء بالدراسة أو الشهادة، وقد بادر إلى تجميع مواده أولا الكاتب عبد الله المتقي، وانضم إليه تطوعا الباحث محمد حماني، وإذ نجزي لهما مع الشكر أجمل الشعر، نشكر أيضا كل المساهمين في هذا العمل الأدبي الذي كسر بالشهادة منطق الشاهدة، ولا يفوتني أخيرا أن أتساءل حائرا: ما جدوى أن نحصي الأيام، هذه أربعينية وذاك يوبيل مئوي، والمعني بهذه الأيام كان إلى أمس، ماثلا بيننا، ينثر هنا وهناك أكثر من حياة، بينما بعض المعنيين بفلذات أشعاره وأفكاره، كانوا همُ الأموات !

محمد بشكار

لا أعجب إلا لعشوائية المنايا وخبطها، ترفع من تشاء، فيغدو بعد عدم أشهر من نار على علم، وتمضي بمن تشاء في خبر عابر، ألم ترَ أيها المحدق في الهاوية المؤجلة، كيف لم ينتبه أحد، لموت الكاتب العالمي خورخي لويس بورخيس، وهو مَنْ هو في علو كعب القلم، وما ذلك إلا لتزامن وفاته مع فوز الأرجنتين بكأس العالم عام 1986، وكأن مارادونا انتقم من مواطنه بورخيس، لا لشيء إلا لأنه يبغض كرة القدم، لنقل إن الشاعر، كائن منفرد ولا يهمه أن يتبعه الحشد، سواء في الممات أو الحياة، بل إن الشاعر وهو يكتب في عزلته القصوى، قد روضته الأيام على مقارعة الفراغ، مقتلعاً أكثر من ضرس، ألم يقل موريس بلانشو: «إنني حين أتكلم.. يتكلم الموت بداخلي»، وذلك لعمري أبلغ درس!

لا أحد يختار التوقيت المناسب كي يولد أو يموت، وشاعرنا الكبير محمد السرغيني رحمه الله، لبى نداء ربه وأطلق العنانَ لروحه الطاهرة في 14 غشت 2026، وهو نفس

يحيي أربعينية الكائن السبئي ويؤرخ للأبد بدراسات وشهادات حول الشاعر الكبير محمد السرغيني

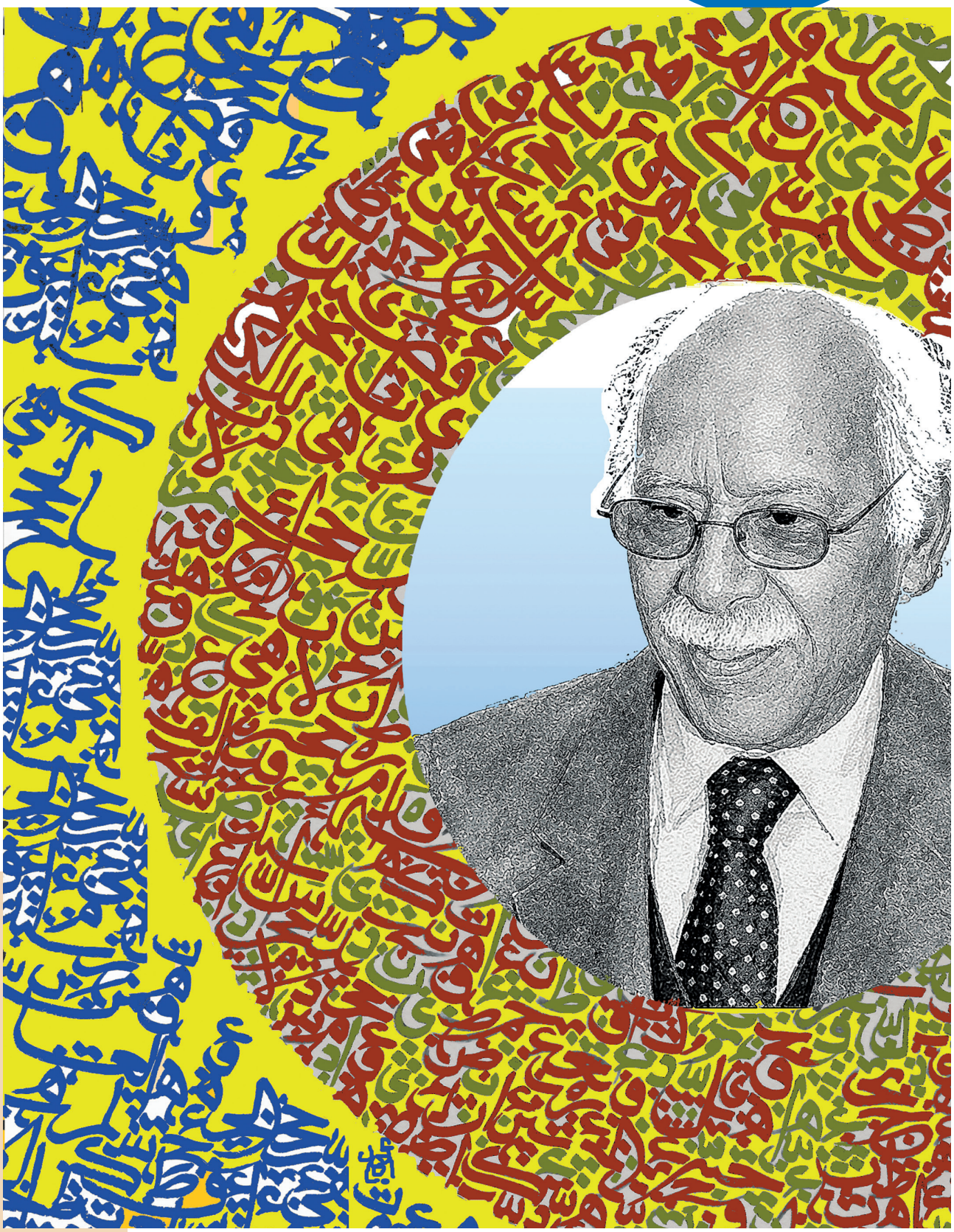

بريشة الفنان الحروفي مصطفى أجماع

خيمت أمس الأربعاء بحدادها ، لذكرى الأربعينية للشاعر المغربي الكبير محمد السرغيني ، فقد ودع عالمنا عن عُمر ناهز 96 عاماً ، وذلك يوم 14 غشت 2026 ، بعد مسيرة أدبية حافلة بالشعر والكتابة النقدية والبحث الأكاديمي منذ خمسينيات القرن الماضي.

وشكّل هذا الإرث الأدبي الزاخر ، جزءاً من ذاكرة الحداثة الشعرية بالمغرب ، توجت بحصوله على جائزة الأركانة العالمية للشعر ، وزيادة في التقدير والتكريم الجمين ، لهذا الكائن السبئي ، يفرد ملحق «العلم الثقافي» صفحاته من الغلاف إلى الغلاف ، ملفا يتوزع بين الدراسة والشهادة ، مع الشكر بلا حدود لكل المساهمين في التأريخ لهذا الأبد..

بادر إلى تجميع مواد هذا الخاص :

عبد الله المتقي و محمد حماني

د. عبد الرحيم وهابي

تجربة محمد السرغيني.. من شعرية النص إلى شعرية العالم

كان من جميل الأقدار، أن تعرفت إلى الشاعر محمد السرغيني، في كلية ظهر المهراز بفاس، أوائل التسعينيات من القرن الماضي، عاينته عن كثب طالبا، في شعبة اللغة العربية، يقف على عتبات صروح الشعر والنقد والبلاغة، متزودا من معرفته الموسوعية، وقدرته على مد الجسور بين الأدب والسميولوجيا والفلسفة والدين والتاريخ... إلخ، وكان الأجمل أن يمنحني سنة 1991، فيما أتذكر، جائزة شعرية في مسابقة وطنية نظمتها جمعية ثقافية بمدينة فاس، وكان هو رئيس لجنة التحكيم. منذ ذلك الحين رسم محمد السرغيني في مخيلتي صورة جميلة للأستاذ الجامعي العالم المثقف الشاعر، وتكونت في نفسي تلك الدهشة التي تجعل كل من يلقاه يستجمع كل قواه النفسية والفكرية، لينهل من معرفة لا تنفتح أبوابها إلا للمجتهدين. وترسخت تلك الصورة بقراءة دواوينه «ويكون إحراق أسمائه الآتية»، و»من فعل هذا بجماجمكم؟ و»بحار جبل قاف»، و»الكائن السبئي». ظل حب الشعر حبي الأول، تؤازره صورة شاعر كبير، ورغبة، ظلت مؤجلة، في الإحاطة بعوالمه الشعرية، من مدخل البلاغة التي تُملك الشعرَ على الأقاليم الجميلة في إمبراطوريتها.

يقف الشاعر محمد السرغيني مبدعا متفردا في الشعر العربي المعاصر، ليس لأنه غير الشكل الشعري، ووحد الإيقاع والصور، وألغى، بالتخلي عن القافية، الحدود بين الجمل في أفق قراءة محكومة بسيمياء الرموز والأساطير المتناسلة؛ ولكن لأنه شاعر ظل يبدع من قلب النظرية، يحاول أن يجد لتصوره الشعري تحققات في قصائده. ومن هنا لا يمكن فهم التجربة الشعرية لمحمد السرغيني دون التخلص من القيود الشكلية للشعر، والانفتاح على وظيفته، تلك الوظيفة التي جعلت رائد الشعرية الفرنسي جان كوهن- بالرغم من كونه رسخ نظرية الانزياح الشعري- يعترف بأن الشعرية تتجاوز في الحقيقة حدود النص لتنفتح على «شعرية العالم»، وهو بالطبع يقصد العالم الشعري الذي لا يمكن مقارنته أو معارضته بالعالم الواقعي، باعتباره عالما بلا نظير ولا معارض. ليست البلاغة بمستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية، في شعر محمد السرغيني سوى السطح الظاهر لبحر يخفي الجواهر في أعماقه، في كل مرة تقرأ نصوص الشاعر محمد السرغيني، تحتاج إلى أن تبحث عن قبس النور المختفي في ثنايا النصوص لإنارة الطريق. فما السر وراء حشد ما لا حصر له من الأعلام: أنبياء وحكماء، وملوك، وفلاسفة، وشعراء، وروائيين، ورسامين وموسيقيين، وأبطال ملاحم، ومحاربين (دانتي، وهوميروس، والأعشى، والمتلمس، وكسرى، وبلقيس، وجالينوس، وفاوست، وجالوت، وتولستوي، وديوجين، وخوان ميرو، وسالفادور دالي وبابلو بيكاسو، ورفائيل ألبرتي.... إلخ)، في ديوان واحد؟ الجواب هو أن كل هؤلاء يمثلون بأفكارهم وإبداعهم وسيرهم جانبا من الحقيقة التي يبحث عنها الشاعر. لا غرابة أن يعتبر محمد السرغيني، شخصيات شعره «دراويش»، كما عبر عن ذلك في قصيدة تحمل العنوان نفسه، حيث البحث عن الحقيقة الجميلة للعالم الشعري، يوحد كل هؤلاء. يقتضي تأويل شعر محمد السرغيني الإطلالة على كل العوالم التي تمثلها هذه الشخصيات، وفك رموز فسيفساء ألوان أفكار اللوحة/ القصيدة. وهي مهمة لا يطلع بها غير قارئ متعال أو قارئ مثالي، حسب تعبير ريفاتير. قارئ متحرر من أحابيل البلاغة، ليغدو الوصول إلى الفهم أمرا عسيرا، لا يتحقق إلا في لحظات وهم، وضع لها الشاعر صورة تمثيلية، حيث لا ينجلي المعنى إلا حين يأفل القمر، وتعوضه نجوم خافتة: «البلاغة بجهد رائع تبحث عن حقيقة المجاز حين تنتشي «بنات نعش» [مجموعة نجوم] بكسوف قمر التأويل... البلاغة شقاء العقل».

بهذا المعنى يكتسب الشعر عند محمد السرغيني قيمة معرفية، توازي بين القلب والعقل، وفق تصور ينبني على وحدة العالم، ووحدة المعرفة نفسها، أو كما قال محمد السرغيني في إحدى قصائده «الشعر واهب القلب عقلا»، وتغدو جمل القصيدة «جملا معرفية» تنتفي فيها الحدود بين الشعر والفلسفة.

هذه الوظيفة المعرفية للشعر، لا تتحقق إلا في ضوء وظيفة أنطولوجية، تعمل على إعادة تشكيل الوجود، ولهذا نفهم لماذا ظل الشاعر محمد السرغيني منشغلا بأنطولوجيا الأماكن وعناصرها: مدنا، وقرى، وجبالا، ووديانا... بل وأزقة وشوارع ودروبا... إلخ، يعطي لكل مكان قيمة جغرافية جديدة، وقيمة وجودية جديدة، تنشأ من العلاقة بين الذات المتأملة والمكان، لا غرابة أن تتناسل في شعر محمد السرغيني أسماء المدن المغربية والعربية، وأن يحاول الشاعر وضع سجل تخييلي جديد لها، وعلى سبيل المثال، يتوقف الشاعر في قصيدة عنونها بـ «عشارية لبحر آسفي»، ليستخلص من تأمله في بحر مدينة آسفي، معاني التطهير، من الحزن، الذي أورثه الأنبياء للبشر (يونس، ويعقوب)، لتتناسل دلالات الماء في تأمل شاعري تتهادى على أموجه الأساطير التي تراكمت في القصيدة . لأجل هذا الكشف الأنطولوجي للشعر، روض الشاعر مخيلته، لكي يجمع بين المتناقضات، في لحظات احتراق عناصر الصورة «الشبَه - والمشبّه - والمشبه به»، واستعار من النار «بردها وسلامها»، وتعلم كيف ينسج العلاقة بين القنديل والسحابة، بين الماء والنار و»الماء غير الماء والنار غير النار»....

وما دام الشعر اكتشافا، فقد شبه محمد السرغيني الشاعرَ بذلك الطفل الذي يكتشف الأقاليم، حيث يخبرنا في قصيدة بعنوان «سيرة رجل يسبق ظله»، وتحديدا في مقطع يحمل عنوان «دخول الطفل إلى الأقاليم»، عن «كفر عاقب» [قرية فلسطينية]، ليعرفها بأنها «جبل الملح»، الذي نُصب فيه الفخ للطفل...، كما يحدثنا عن «طبرية» وهي تعيش بين «ذلاقة الناي وفصاحة السكين»، وعن «أنطاكية «وتاريخها الطبي وعن بلح البحر الذي سكن في بلح النخل... إلخ. ينهل الشاعر من تاريخ الأماكن وذاكرتها معان وجودية، للحياة والموت والنصر والهزيمة، والأمل والألم... إلخ، حيث لا يكتمل معنى الحياة ومعنى الأرض خارج فينومينولوجيا المكان، أو كما قال الشاعر نفسه: « سافر للتو إلى سومر لاسترداد الجثث المحشوة بالأساطير. لا ترجع حتى يكمل معنى الأرض».

هكذا نستخلص من شعر محمد السرغيني نظريته في الشعر: الشعر بحث عن جواهر الأشياء، غوص في الأعماق لاكتشاف الماهيات، والشاعر هو الذي يجعل شعرية اللغة (لإيقاع، والأساطير والرموز والصور...)، سبيلا لكي «يقتحم مفازة الألوان»، ليمتع القارئ بألوان جديدة، الشاعر هو الذي يجعل العالم شعريا، يمنحه للقارئ لينقذه من مأساة العالم الواقعي حيث تترصده المأساة في كل منعطف.

يصعب على من عرف محمد السرغيني أستاذاً وشاعراً وإنساناً أن يكتب عنه بعد الرحيل ببرودة الناقد، أو أن يستسلم بسهولة إلى لغة الرثاء التي تقول إن شاعراً رحل وخلف وراءه دواوين وكتباً ودراسات. فبعض الراحلين لا يغادرون حياتنا حين يغادرونها؛ يظلون مقيمين في الذاكرة، في نبرة صوت، وفي جملة عابرة، وفي درس قديم، وفي سؤال ظل مفتوحاً منذ سنوات الشباب. ومحمد السرغيني واحد من هؤلاء الذين لا يكفي أن نقول عنهم إنهم رحلوا، لأن جزءاً من حضورهم يستمر في تلامذتهم، وفي قرائهم، وفي الأثر الذي تركوه في الثقافة والجامعة والشعر.

ومرور أربعين يوماً على رحيله لا يعني أن الغياب أصبح قابلاً للتصالح معه؛ فما يزال وقع الفقد طرياً، وما تزال صورته، بصوته وحضوره وطريقته في الحديث والنظر إلى الأشياء، أقرب إلى الذاكرة من أن تتحول إلى مجرد ذكرى. ولعل الكتابة في هذه المناسبة لا تستطيع أن تكون رثاءً مكتفياً بالبكاء، ولا دراسة نقدية باردة، وإنما هي محاولة لاستعادة رجل ترك، إلى جانب إرثه الأدبي والشعري، إرثاً إنسانياً وعلمياً لا يقل قيمة: أجيالاً من الطلبة الذين جلسوا إلى دروسه، وتلقوا عنه المعرفة، واكتشفوا على يديه طرائق أخرى في قراءة النص والحياة، وكثيرين ممن أشرف على بحوثهم ورسائلهم وأطروحاتهم، ورافق بداياتهم العلمية والإبداعية. وأنا واحد من هؤلاء.

محمد السرغيني.. الشاعر الذي لا يشبه إلا نفسه

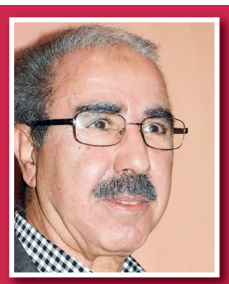

عبد السلام المساوي

لقد كان محمد السرغيني في حياة أجيال من طلبة الأدب المغربي أكثر من اسم في لائحة الأساتذة؛ كان شخصية علمية وشعرية وفكرية يصعب فصل بعضها عن بعض. فمن قاعة الدرس إلى جلسات الحوار، ومن الإشراف الأكاديمي إلى الحديث العابر، كان يترك فيمن حوله شيئاً من أثره، لا بالوعظ أو التلقين، وإنما بذلك الحضور الذي يجعل المعرفة تجربة، والشعر طريقة في النظر إلى العالم. ولذلك لم يكن أثره مقصوراً على ما تلقيناه منه في المدرّج الجامعي، بل امتد إلى ما أصبحنا عليه في علاقتنا بالقراءة والكتابة والسؤال.

وأنا، حين أستعيد علاقتي به اليوم، أجدني أمام أستاذ لم تنته دروسه بانتهاء سنوات الدراسة، بل ظلت تتسع داخل التجربة نفسها. فقد بدأت علاقتي به في الجامعة، لقاء الطالب بالأستاذ، ثم تواصلت في الدراسات العليا، حيث أشرف على أبحاثي وأطروحتي، وكنت أتعلم منه في الدرس الجامعي كما أتعلم منه في الجلسات الخاصة التي كانت تتحول، على نحو تلقائي، إلى امتداد آخر لفضاء كلية الآداب بظهر المهراز. ولعل ما تعلمته في تلك اللقاءات الشخصية كان، في جوانب كثيرة، أعمق وأبقى من كثير مما يمكن أن تختزنه المقررات والمحاضرات.

ومن هنا فإن الكتابة عنه في ذكراه الأربعينية تستعيد في داخلي رهبة الطالب وهو يقف أمام أستاذه، وتستعيد في الوقت نفسه ألم الفقد الطازج الذي يرافق غيابه. أربعون يوماً فقط تفصلنا عن رحيله، لكنها كانت كافية لكي نشعر بحجم الفراغ الذي تركه، لا في الشعر وحده، وإنما في الجامعة وفي المشهد الثقافي المغربي أيضاً. فقد كان السرغيني شاعراً وأستاذاً وباحثاً ومثقفاً، وكان من أولئك الذين لا يكتفون بتدريس المعرفة، بل يسهمون في تكوين أجيال كاملة من القراء والباحثين والكتاب.

ومن هذه الزاوية تأتي هذه الشهادة التي أستعيد فيها بعضاً من علاقتي بالأستاذ محمد السرغيني، لا بقصد استنفاد الحديث عن تجربته الشعرية أو الادعاء بالإحاطة بمشروعه، وإنما لأرد شيئاً من الجميل إلى رجل كان له أثر عميق في تكويني، وأتيح لي أن أكون واحداً من طلبته الذين درسوا على يديه، ثم واصلوا معه دراساتهم العليا، وأشرف على أبحاثهم وأطروحاتهم، ومنحهم من وقته ومعرفته وتشجيعه ما لا تختزنه المقررات الجامعية.

وأجدني، في هذه المناسبة، مديناً بالشكر والامتنان للشاعر والصديق محمد بشكار، المشرف على هذا الملحق الثقافي لجريدة العلم، الذي دعاني إلى المشاركة في هذا الملف الخاص بالذكرى الأربعينية لرحيل محمد السرغيني، باعتباري واحداً من طلبته ومن المقربين منه. وقد أتاحت لي هذه الدعوة فرصة العودة إلى زمن قريب، وإلى صور وأحاديث ووقائع ما تزال حاضرة في الذاكرة، وإلى علاقة إنسانية وعلمية لم يكن فيها الأستاذ مجرد أستاذ، ولا الطالب مجرد طالب. ولعل أجمل ما في هذه الدعوة أنها أعادتني، ولو للحظات، إلى ذلك الزمن الذي كان فيه السرغيني حاضراً بيننا، وإلى تلك العلاقة التي لا تنتهي بانتهاء الدراسة، لأن بعض الأساتذة يواصلون تدريسنا حتى بعد أن نغادر مدرجاتهم؛ نكتشف، مع مرور الوقت، أن دروسهم الحقيقية لم تكن دائما تلك التي كانت مكتوبة على السبورة أو في دفاتر المحاضرات، وإنما كانت في الطريقة التي علمونا بها أن نقرأ، وأن نشك، وأن نسأل، وأن ننظر إلى الأدب باعتباره حياة أخرى للإنسان.

بعد مرور هذه السنوات الطوال على لقائي بالشاعر محمد السرغيني، لقاء الطالب بالأستاذ، أستطيع أن أقول إنني وجدت في بستانه الخصيب كثيراً مما كنت أبحث عنه، وربما وجدت فيه ما لم أكن أعرف أنني أبحث عنه أصلاً. فقد لازمت محاضراته خلال سنوات السلكين الأول والثاني من التعليم الجامعي، ثم واصلت معه دراساتي العليا، مسترشداً بما كان يصدر عنه من قول أو سلوك، في دروسه الأكاديمية، كما في جلساته الخاصة، وفي تلك التفاصيل الصغيرة التي لا تسجلها المقررات، لكنها تظل، مع مرور الزمن، أكثر رسوخاً في ذاكرة التلميذ من كثير مما تحفظه الكتب.

كان محمد السرغيني أستاذاً لا يشبه الأساتذة المعتادين. ولم تكن دروسه في مناهج تحليل النصوص الأدبية وسيميولوجيا الأشكال الرمزية مجرد محاضرات تستوفي موضوعاتها وتنتهي بانتهاء الحصة، بل كانت مغامرات في التفكير، وتمارين على زحزحة المألوف، ومحاولات لاكتشاف ما تخفيه النصوص وراء ما تقوله مباشرة. كان يضعنا أمام اللغة لا باعتبارها أداة جاهزة للتعبير، وإنما باعتبارها كائناً حياً، تتعدد طبقاته، وتتغير دلالاته، وتظل قابلة لإعادة الاكتشاف كلما تغيرت زاوية النظر إليها.

ولم تكن المعرفة عنده منفصلة عن القلق الذي يولدها. فقد كان الدرس الأكاديمي مناسبة لمساءلة النظريات والمناهج، لا للاستسلام لها، وكان يحرضنا على أن نقرأ النصوص بأعيننا، لا بأعين الكتب وحدها. ولعل هذا ما جعل حضوره في قاعة الدرس يتجاوز حدود الأستاذ الجامعي، ليغدو حضوراً فكرياً وتربوياً يوقظ في الطالب الرغبة في أن يكون قارئاً مستقلاً، لا مجرد مستوعب لمعارف الآخرين.

وكانت الجلسات الخاصة التي كانت تتاح لي بفضل إشرافه على بحوثي، أو تلك التي كان يتيحها لمن يتوسم فيهم قابلية للإنصات والحوار، امتداداً طبيعياً لدروسه الأكاديمية، وإن في فضاء أكثر حرية وأقل خضوعاً للضوابط الرسمية. تبدأ الجلسة عادية، ثم لا تلبث أن تتحول إلى ندوة مفتوحة، تذهب في كل الاتجاهات والموضوعات، قبل أن يعود الشعر دائماً ليكون الكابح الذي يرد الأستاذ والمتحلقين حوله إلى صميم المسألة.

وكان فناء مقهى دينا، القريب من إقامة الأستاذ، وقبله مقاه أخرى، شاهداً على هذا الامتداد العلمي غير الرسمي لمدرجات كلية الآداب بظهر المهراز في فاس. هناك، حيث تتخفف الأفكار من ثقل المكان الأكاديمي، كانت الآراء والمواقف التي قد يعسر طرحها أمام جمهور الطلاب تجد مجالاً أرحب للتداول والنقاش. لم تكن تلك الجلسات استراحة من الدرس، بل كانت درساً آخر، أكثر حميمية، وأشد التصاقا بالحياة، تتداخل فيه الثقافة بالسياسة، والأدب بالتاريخ، والتجربة الشخصية بأسئلة المعرفة، ويظل الشعر، في النهاية، مركز الجاذبية الذي يعيد للأحاديث توازنها.

وأشهد اليوم أن ما تعلمته من الأستاذ في تلك الجلسات الخاصة يتجاوز بكثير محتويات الدروس الأكاديمية التي كان يلقيها. فقد فتح لي نافذة على عوالم الشعر وعلاقته بالحياة، وأرشدني، في بداية الطريق، إلى النبش في عالم الشاعر الراحل أمل دنقل، منبهاً إلى أهمية مشروعه الشعري، وإلى أن رحيله المبكر لم يضع حداً لفاعلية ذلك المشروع، بل جعله مفتوحاً على قراءات وأسئلة لا تنتهي. ثم قادني إلى اختيار موضوع الموت في الشعر العربي المعاصر، مؤكداً أن الموت من أخطر الموضوعات التي واجهتها الفنون جميعاً، لأنه يضع الإنسان أمام حدوده القصوى، ويجعل اللغة في مواجهة ما يتعذر قوله.

لم تكن هذه التوجيهات مجرد اقتراحات لموضوعات بحثية، بل كانت، في جوهرها، دروساً في كيفية النظر إلى الأدب باعتباره معرفة بالإنسان، ومغامرة في اختبار المجهول. لقد كان يدفعنا إلى اختيار الموضوعات التي لا تستنفدها الإجابات السريعة، وإلى تحويل السؤال إلى مشروع قراءة، والقلق إلى معرفة، والانبهار الأول إلى بحث لا يكتفي بسطح الأشياء.

وخلال تلك الرحلة في دوحته الغناء، كنت أنصت إلى كلامه غير الرسمي عن الشعر، فأكتشف شيئاً فشيئاً ملامح تصوره للكتابة الشعرية. كان يرى، كما فهمت من أحاديثه، أن الغنائية حين تتحول إلى انفعال تلقائي واسترسال في البكاء، قد تصبح عطباً يصيب الشعراء غير المدربين على العيش في عالمٍ لم يعد مقتنعاً بالبكاء. ولم يكن ذلك رفضاً للوجدان، ولا إنكاراً للتجربة العاطفية، وإنما كان دعوة إلى تجاوز الانفعال الخام، وتحويله، عبر المعرفة والتشكيل الفني، إلى تجربة قادرة على مقاومة الابتذال.

وكان يؤكد أن المعرفة المهضومة تضاهي التجربة الواقعية في المعيش، وأن الشاعر لا يتشكل بما عاشه وحده، وإنما كذلك بما قرأه واستوعبه وأعاد تأويله، ثم أدخله في نسيج تجربته الخاصة. فالتجربة الشعرية لا تبدأ بالضرورة من حادثة عاشها الشاعر، بل قد تبدأ من فكرة قرأها، أو صورة استقرت في ذاكرته، أو سؤال ظل يطارده، ثم لا تلبث أن تتحول، بفعل المخيلة واللغة، إلى تجربة شخصية لا يمكن ردها إلى أصل واحد.

لم يكن التجديد عنده مجرد استبدال شكل بآخر، أو هدم سطحي للقوالب الموروثة، بل كان فعلاً عميقاً في صميم اللغة، يقوم على حسن تدبير المرجعيات، ومزجها بالتجربة الذاتية، وإعادة إنتاجها ضمن رؤية خاصة.. فالموروث الثقافي، في نصوصه، لا يظهر بوصفه مخزوناً للزينة أو شاهداً على سعة الاطلاع، وإنما يتحول إلى مادة حية للتفكير والتأويل، وإلى طاقة تستمد منها القصيدة قدرتها على مساءلة الحاضر. إنه لا يستدعي المرجعيات لكي يثبت معرفته بها، بل لكي يعيد اختبارها، ويضعها في سياقات جديدة، ويمنحها إمكانات لم تكن ظاهرة في منابعها الأولى. وفي هذا التفاعل الخلاق بين المرجع والتجربة تتشكل إحدى الخصائص الأساسية لشعره.

إن نصوصه تحمل معرفة إنسانية واسعة، لكنها لا تقدمها في صورتها المدرسية أو التقريرية، إذ تخضعها لعمل شعري يعيد ترتيبها، ويغير علاقاتها، ويمنحها دلالات جديدة. ولهذا فإن شعره لا يستسلم للقراءة السريعة، ولا يتيح للمتلقي أن يكتفي بالانطباع الأول. إنه شعر يطالب قارئه بقدر من المشاركة، ويجعله طرفاً في إنتاج المعنى، لا مستهلكاً لمعنى جاهز. أما وجدانه، فلا ينهض على الشكوى المباشرة أو على استدرار التعاطف، بل يتخذ من الفكر والسخرية وسيلتين لصياغة الألم، وتحويله إلى موقف من العالم. ولذلك فإن غياب البكاء الظاهر عن كثير من نصوصه لا يعني غياب الوجدان، بل قد يدل على أن الوجدان فيها قد بلغ درجة من التشكيل الفني لا يعود معها قابلاً للظهور في صورته الأولى. فالحزن، حين يدخل مختبر اللغة والفكر، لا يختفي بالضرورة، وإنما يتغير شكله، ويتحول إلى سؤال أو مفارقة أو سخرية أو رؤية نقدية للعالم.

لم يكن الأستاذ ينظر إلى الشعر باعتباره مرآة مباشرة للحياة، ولا يختزل التجربة الشعرية في الوقائع التي عاشها الشاعر، أو في الموضوعات التي يتوقع المتلقي أن يجدها في قصيدته. إن التجربة عنده لا تكتمل إلا حين تذوب في اللغة، وتمتزج بما راكمه الشاعر من قراءات ومعارف، ثم تخرج في صورة جديدة لا يمكن ردها إلى مصدر واحد أو حادثة بعينها. من هنا يمكن فهم ذلك التوتر الخلاق بين الذات والمقروء في شعره. فمحمد السرغيني، وهو المطلع الواسع على ثقافات العالم والعارف بعدد من اللغات، لم يكن يستعمل المعرفة استعراضاً، وإنما كان يجعلها جزءاً من البنية العميقة لتجربته. وكانت قدرته على تطويع الإحساس العادي والارتقاء به إلى مستوى الحدس الشعري الحاد سبباً في أن يتراجع البكاء المباشر في نصوصه، وأن يحل محله فكر نافذ، وسخرية واسعة، ونظرة لا تتردد في مساءلة الأشياء والأفكار واليقينيات.

لقد كان شعره، في هذا المعنى، أقل انشغالاً بإظهار الألم من تفكيك شروطه، وأقل ميلاً إلى التعبير عن الحزن من تحويله إلى معرفة. وهذا ما يمنح نصوصه تلك المسافة النقدية التي تفصلها عن الاعترافية المباشرة، وتتيح لها أن تتجاوز حدود التجربة الفردية نحو أسئلة أوسع تتصل باللغة والوجود والذاكرة.

كثيراً ما كان الأستاذ يحدثنا عن خمسينيات القرن الماضي، وعن إقامته الدراسية في العراق، وعن صداقاته مع رواد الشعر العربي المعاصر، مثل بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي، وعن النقاشات التي كان يخوضها هناك. كان الشعر العربي يومها يعيش منعطفاً حاسماً، بدأ فيه الخروج من جلده القديم، بحثاً عن أشكال ورؤى جديدة، سرعان ما أصبحت عنواناً لمرحلة شعرية أبهرت شباب ذلك الزمن. غير أن محمد السرغيني، على الرغم من انخراطه في ذلك المناخ الثقافي، لم يطل إقامته الفنية في هذه المرحلة، أو لعله لم يكن راضياً تمام الرضى عن بعض ما كتبه خلالها.

ويؤيد هذا الانطباع، في حدود ما أتذكر، أنه حين فكر في إصدار ديوانه الأول «ويكون إحراق أسمائه الآتية» في منتصف الثمانينيات، استبعد منه نصوصاً سابقة. وقد يكون هذا الاستبعاد دليلاً على حس نقدي صارم تجاه تجربته، وعلى أن الشاعر لم يكن ينظر إلى ما يكتبه باعتباره منجزاً نهائياً، بل كان يراجع بداياته ويعيد النظر فيها وفق ما استقر لديه من رؤية فنية.

لقد انتهى به الأمر إلى أن يصبح صوتاً شعرياً لا يشبه، في فرادته، أياً من الشعراء المغاربة والعرب. قد يختلف معه بعض المتلقين، وقد ينصرف آخرون عن قراءة أعماله لأنهم لا يجدون فيها ما ألفوه من عاطفة مباشرة أو صور مألوفة، ولا يجدون الشاعر الذي يتمرن على الحب بالمجاز، أو يهجو زملاءه بما تيسر من استعارات وكنايات وتشبيهات. لكن من يمعن النظر في نصوصه، ويمنحها الوقت الذي تتطلبه، قد يجد أمامه شاعراً يتعامل مع اللغة بوصفها مادة للتفكير والمغامرة، ويقايض اللفظ بالمعنى، ويجعل من السخرية أداة للكشف، لا مجرد موقف عابر من الأشياء.

أذكر أنني زرته ذات صباح في مكتبه بكلية الآداب بظهر المهراز، وكان قد عُيّن نائباً للعميد. وجدته يوماً ضائقاً بالمنصب الذي بدأ يستنزف وقته، ويدخله في تفاصيل اليومي، ويحرمه مما يحب وما اعتاد عليه من قراءة وكتابة. كنت أحمل في يد فصلاً من رسالتي عن أمل دنقل، التي كنت أعدها تحت إشرافه، وفي اليد الأخرى ديوان «خطاب إلى قريتي»، وقد خرج من المطبعة لتوّه. كان ذلك في أواخر سنة 1986. استقبلني، كعادته، باشاً ضاحكاً، وأخذ يختلق موضوعاً هنا وآخر هناك، ليداري ارتباك الطالب أمام أستاذه. ولما تبين له سبب الزيارة، وضع الفصل الرسالة جانباً، وأخذ ديوان بداياتي، وجعله موضوعاً أساساً للدردشة والتبريك والتشجيع. كنت يومها غارقاً في زهو الشباب، ممتلئاً بأوهام الكتابة وأحلامها، فنسيت أن الأستاذ الذي كنت أقدم له ديواني لم يكن قد جمع شعره في كتاب حتى ذلك الوقت، وهو الذي كان قد قطع شوطاً بعيداً في ريادة الشعر المغربي المعاصر. ولم ألبث أن شعرت بشيء من الحرج، وساورتني هواجس من قبيل أن أكون قد تجاسرت، لا بإهدائه الديوان، وإنما بالإسراع إلى الطبع والنشر.

لم يترك الأستاذ للحرج مجالاً ليستقر؛ فقد استقبل التجربة الناشئة بما كان يملكه من سخاء تربوي، وبذلك النوع من التشجيع الذي لا يلغي النقد، ولا يحوّل الأستاذ إلى مجامل، وإنما يمنح المبتدئ الثقة الضرورية لكي يواصل الطريق.

وما زلت أذكر أن قيمة تلك الزيارة لم تكن في الكلمات التي قيلت عن الديوان وحده، بل في الطريقة التي جعل بها الأستاذ من فرح الطالب بعمله مناسبة لفتح أفق جديد أمامه. وأستعيد هذه الحادثة اليوم، بعد مرور عقودٍ عليها، لأشهد بأن محمد السرغيني ظل سنداً للشباب المبتدئين في عالم الكتابة. كان كثيرون منهم يطرقون باب بيته العامر بفاس، يلتمسون العون والمشورة، ويرغبون في الحصول على اعترافه بتجاربهم الإبداعية، أو يطلبون منه كتابة مقدمات لدواوينهم. وكان يستقبلهم بكرم العالم الذي لا يرى في المعرفة ملكية خاصة، وبحرص المربي الذي يعرف أن الموهبة في بدايتها تحتاج إلى من يصغي إليها، ويأخذ بيدها في دروب الإبداع المعتمة.

ومن عرف الأستاذ عن قرب، عرف أنه كان متابعاً دقيقاً للمشهد الأدبي المغربي، لا يكتفي بما رسخ من أسماء وتجارب، بل يحرص على معرفة ما يستجد في الكتابة، وما يظهر من أصوات جديدة. وقد كان، في مناسبات عديدة، يطلب مني تمكينه من بعض إصدارات الشباب الذين لم يتيسر له العثور على كتبهم، حتى يظل على اتصال بما يجدّ ويطرأ في المشهد الأدبي. وكان هذا الحرص امتدادا لإيمانه بأن التجديد ليس ترفا، وأن كل جيل جديد يأتي بأسئلته وأشكاله ومخيلته، وأن على النقد والتعليم أن يصغيا إلى هذه التحولات، بدل أن يكتفيا بتكرار ما استقر من أحكام.

ألم يكن هو، في الأصل، خريج القرويين الذي غادر عباءة التقليد، وانفتح على تور الحداثة، ثم مضى في مشروعه الشعري إلى حد مساءلة كثير من المسلّمات والتعريفات التي صاغها القدماء والمحدثون للشعر؟ لقد كان تجديده لا يقوم على القطيعة السهلة مع التراث، وإنما على إعادة النظر في طرائق التعامل معه، وعلى تحرير اللغة من الاستعمالات التي تحولت إلى قوالب، وعلى منح القصيدة قدرة جديدة على إنتاج الدلالة.

هذه شهادتي عن الأستاذ الشاعر محمد السرغيني. أكتبها اليوم بذاكرة الطالب الذي ظل، رغم مرور السنين، يشعر بأن بعض الأساتذة لا ينتهون بانتهاء الدرس، ولا يغيبون حين يغادرون قاعة المحاضرات. إنهم يستقرون في طريقة نظرنا إلى العالم، وفي الأسئلة التي نواصل طرحها على أنفسنا، وفي قدرتنا على ألا نطمئن تماما إلى الإجابات الجاهزة. وإذا كان الرحيل قد وضع حداً لحياة الشاعر، فإنه لم يضع حداً لمشروعه، ولا للأسئلة التي أثارها شعره حول اللغة والحداثة والمعرفة والتجربة. فالأعمال الكبرى لا تنتهي عند حدود صاحبها، وإنما تبدأ، بعده، في ذاكرة القراء، وفي جهود النقاد، وفي ما تفتحه من إمكانات للكتابة الجديدة.

رحم الله أستاذي محمد السرغيني رحمة واسعة، وأبقى أثره في ذاكرة تلامذته ومحبيه، وفي الشعر المغربي والعربي، وفي كل من تعلم منه أن الكتابة ليست تكرارا لما قيل، وأن المعرفة لا تكتمل إلا حين تتحول إلى سؤال، وأن الشاعر الحقيقي هو من يفتح للغة أبوابا لم نكن نعرف أنها موجودة.

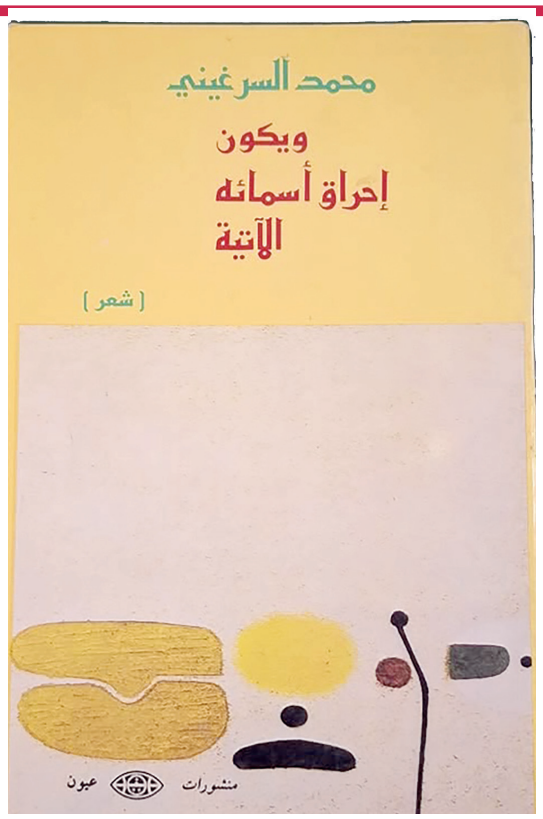

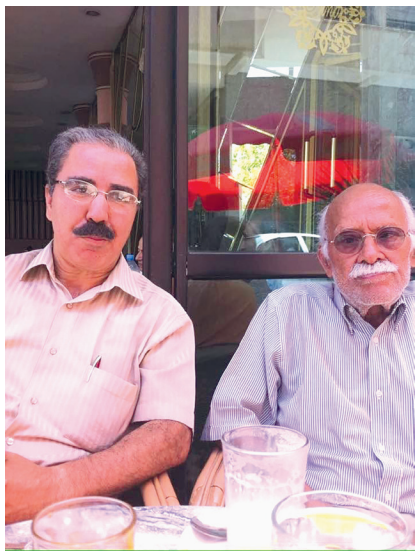

برحيل محمد السرغيني مؤخّرا، فَقَدَ المشهد الأدبي بالمغرب أحد أقطابه المرموقين، الذي ظل، على امتداد عقود من الزمن، يُتْحِف مُتتبِّعي هذا المشهد، داخليا وخارجيا، بكتابات غاية في النضج والبهاء والرصانة، كرّست صاحبَها بوصفه اسمًا بارزًا في أدبنا المعاصر، تنضاف إليها أعدادٌ غفيرة من الباحثين والمبدعين والمثقفين الذين تخرّجوا على يديه، ولاسيما خلال الفترة التي قضاها أستاذا في كلية آداب ظهر المهراز بفاس، التي التحق بها للتدريس منذ أوائل الستينيات؛ فكان أحد أعلام الدرس الجامعي بالمغرب، إلى جانب أحمد المجّاطي ومحمد الخمّار الكنوني وآخرين.

محمد السرغيني.. أحد رموز الحداثة الشعرية بالمغرب

د. فريد أمعضشو

لئن تعدّدت اهتمامات المرحوم، وتنوّعت ما بين الإبداع والنقد والبحث والترجمة، فقد ظل الشعرُ المجال الأكثر جاذبية بالنسبة إليه؛ فترك فيه عددًا من المجاميع والنُّقود الشعرية، وكان أحْرَصَ على ألاّ يُخْرِج للقراء إلا ما استأنس منه النضج، وأدرك قيمته، وحصلَ له الرضا به قَبْلا، بعيدا عن أي تسرع أو استعجال. ولذا، فإنه لم يَعْمِد إلى نشْر أولى أضماماته إلاّ بعد عقود من الكتابة الشعرية، والمقصود عمله الموسوم بـ»ويكون إحراق أسمائه الآتية»، الذي صدر عام 1987، بالدار البيضاء، ضمن منشورات «عيون المقالات». وتلتْه، منذ بداية التسعينيات، سلسلة من الأعمال الشعرية: بحار جبل قاف (البيضاء، 1991)، الكائن السبَإي1 (مكناس، 1992)، مَنْ فعل هذا بجَماجمكم؟ (من منشورات كلية آدابَ ظهر المهراز، 1994)، مِنْ أعلى قِمَم الاحتيال (فاس، 2001)، تحت الأنقاض فوق الأنقاض (فاس، 2012)؛ وعن هذا العمل الأخير، الذي صدر عن مؤسسة «نادي الكتاب في المغرب»، نالَ جائزة المغرب للكتاب، فرع الشعر، عام 2013. وحاز، من ذي قَبْل، جائزة الأركانة العالمية للشعر (2004)، التي يمنحها سنويا بيت الشعر في المغرب.

ولعل أول ما يثير في هذه الأعمال عناوينها، المكتنزة دلاليّا وإيحائيّا وجماليّا، التي تشي بأنها لن تُسْلِم زمامَها إلى أي قارئ، ولن تكشف عن مخبوئها إلا بفعل قرائي وتأويلي خلاّق، مسْنودٍ بخلفية معرفية وإبداعية غنية؛ الأمرُ الذي يؤشّر- من بين أمور أخرى- على المنزع الحداثي في الكتابة الشعرية لدى محمد السرغيني، الذي اضطلع بدور ريادي في تجديد القصيدة المغربية وتحديثها ونقلها إلى طور آخر، ينهض على تجاوز أكثر تقاليد القصيدة التراثية، على مستوى الأشكال والمضامين، وتبنِّي جماليات مُغايرة في الكتابة، قوامُها التثوير اللغوي، وخرق المألوف، والتعامل الخاص مع سائر مكوّنات الخطاب الشعري، فضلا عن الانفتاح على سِجلّات ومرجعيات عدة، من شأنها إغناء القصيدة المعاصرة وتخصيبها، وفي طليعتها الصوفية، التي «مثلت- بالنسبة إليه- رؤية تحْمِله على تخصيب المتخيَّل، الذي به يرمّم إيهامات الحسّ باستيحاء الحدس»2. إن البُعد الصوفي يحضر، بقُوة، في أشعار السرغيني، مع أنه لم يكن متصوفا في سلوكه وحياته، ولكنه ظل يمتح، في نسج خيوط نصوصه، من قاموس التصوف، ومن لغة المتصوفة. يقول: «تعاملت مع التصوف كمعجم لا كحُضور، على العكس مما وقع فيه بعض الشعراء الآخرين. لقد كنتُ أعرف مسبقا أن الفكر الصوفي تواكل واستسلامٌ ورضاءٌ بالوجه العقيم للواقع؛ ولذلك رفضتُ هذا الحضور، من حيث استعملتُ أدواته استعمالي الخاص؛ فالقبض عندي يعني المُصادَرة، والبسط يعني أيضا الاحتواء، في حين أن معنى الكلمتين في المعجم الصوفي غيرُ ذلك على الإطلاق»3.

وبإلقاء نظرةٍ - ولو عجلى - على مُنْجَز السرغيني الشعري، نلْمَس انخراطه وتأثرَه بالسياق الذي تبلور فيه. فبالعودة إلى بداياته، نجده نافرا من الواقع المَعيش محليا وقوميا، الذي كانت تخيِّم عليه، في أواسط القرن الماضي، سلسلة من الإخفاقات، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، التي كانت تدعو الكاتب الملتزم إلى التبرُّم منها، واللِّياذ بعوالم أخرى بديلة؛ على غرار ما كان يفعله الشعراء الرومانسيون شرْقا وغرْبا، وهذا ما نَلْحَظه في ما سمّاه «ما قبل الأشعار الأولى»، التي كان ينْشُرُها باسم مستعار «محمد نسيم»، وذلك قبل أن يَخضع، لاحقا، لضغط الهَمّ الواقعي والبُعْد الإيديولوجي، مسايَرةً لِما كان سائدا في المنطقة العربية؛ فالتصق إبْداع محمد السرغيني بالواقع، وانحاز إلى جماهيره، وتعرَّض إلى قضاياه ومشاكله المُلِحّة، متوسِّلا بلغة واضحة (من السهل الممتنع)، تُعِينه على التعبير والتبليغ. وقد استمر يَنْظِمُ شعره- في هذا الإطار، وبهذه الصورة- إلى أن اقتنع بمحدودية هذا الأسلوب، وعدم قدرته على بلوغ ما كان يصبو إليه؛ إذ كان يتم، على نحو فجّ ومنمَّط، «استهلاك اللغة على أنها نماذج، لا على أنها حيزٌ لاستيلاد الصور والأفكار، وتطويع المخيّلة إلى الاستجابة لهذه الصور وتلك الأفكار»4؛ فكان لا مناص من أن ينفتح على عالم آخر، له خصوصياته الكثيرة، أتاح له- في الأساس- اجتراح لغة وَلود، ذات أفق أرْحَب، يوفر إمكانات هائلة للتعبير والتأثير، وهي اللغة الصوفية، التي كان يَرْكن إليها كثيرًا في إبداعاته، شعرًا وسردًا، لاسيما وأن اهتمامه بالتصوف- أكاديميّا- يعود إلى زمن بعيد؛ إذ إنه حقق كتاب «بُدّ العارف» لعبد الحق بن سبعين (ت: 669هـ)، في إطار بحثه لنيل دكتوراه السلك الثالث بفرنسا عام 1970، وأعدّ أطروحة عن «العرض النقدي للفلسفة الإسلامية من خلال ابن سبعين»؛ لنيل دكتوراه الدولة، ناقشَها في جامعة السّوربون بباريس عام 1985. يقول السرغيني نفسُه عن تلك المفاصل الثلاثة الكبرى في مساره الشعري: «لا يمكن فصل السيرورة الشعرية لدى الشاعر عن محطّاتها المختلفة، التي رَسَتْ عندها منذ الممارسة الأولى إلى التوقف القَسْري حين حُلول زمن النُّضوب: البدايات المَهْجَريّة التي تعكس وُجْدانا رومانسيا ينحو نحو الأنا الجمعي، متخذا سبيلَ التأمل في المفارقة الجامعة بين واقع تخيُّلي وواقع ملموس، بين عالم المثال وعالم الزيف. ثم التجأ إلى الواقعية تكفيرا عن إثم التأمل الهارب من الزيف إلى المثال، وذلك بعد ذيوع فكرة الالتزام، واستحواذها على الأذهان في الخمسينات والستّينات. ثم الاحتماء من طغيان الإيديولوجي المسطح بالبحث عن ملاذ في التصوف، لا باعتباره ممارسةً، بل باعتباره لغة شفافة وفكرًا نافذ البصر والبصيرة، وكان ذلك ردّ فعل للأفكار القسرية التي جثمت على المبدعين من خارج العملية الإبداعية لا من خلالها. وفي الأحوال الثلاثة، انطلقت من أرضية جامعة بين الوطنيّ والقوميّ والإنسانيّ»5.

يعكس هذا التصريحُ، بوضوح، غنى المرجعيات التي تأثر بها شاعرنا عبر مسار تجربته الممتدة هذه؛ فقد قرأ مبكرا لشعراء المهجر، ولرواد الحركة الرومانسية العربية عموما، وتأثر بتصورهم للشعر ووظيفته، وبموقفهم من الواقع الماثل/ عالم الزيف، وبطريقتهم في الكتابة. كما تأثر بكتّاب كبار محسوبين على التيار الواقعي والرمزي والحداثي، في الغرب خاصة، وبالمتصوفة وإبداعهم؛ مثل محي الدين بن عربي (ت: 638هـ). ولا يمكن أن نُغفل اطلاعه الواسع على الأدب العربي القديم، واستلهامه، والنهل من مَعِينه في كثير ممّا أبدعه. ومن هنا، يتبدّى لنا أن «وعيه الشعري تشكل من شعريات المنجز الغربي؛ كالرمزية (شارل بودلير، آرثر رامبو، ستيفان مالارمي...)، التي أعادت الاعتبار للحدْس والصورة الشعرية الكثيفة، ثم السوريالية مع أندريه بريتون وبول إيلوار ولويس أراغون ورينيه شار، التي ثارت على القواعد التقليدية النمطية والمنطق المألوف، وسعت للأفكار القسرية التي جثمت على المبدعين من خارج العملية الإبداعية لا من خلالها. وفي الأحوال الثلاثة، انطلقت من أرضية جامعة بين الوطنيّ والقوميّ والإنسانيّ»5.

إلى تحرير المخيِّلة الإنسانية، وتميزت بالكتابة التلقائية وإعادة الاعتبار للاّوعي كمصدر للكتابة الشعرية؛ أي الاحتفاء بالحُلم، فضلًا عن التشبع بالثقافة العربية الأصيلة... في هذا المناخ المعرفي عاش الشاعر محمد السرغيني، وأبدع نصًا شعريا تبدو حياله المداخل النقدية الكلاسيكية عاجزة عن الفهم والتحليل والتأويل؛ نظرا للمنحى الشعري الذي اختاره لكتابة شعرية، تمزج بين المعرفة الفلسفية والحس الوجداني الرهيف، وتزاوج بين التأصيل (التراث) والتجديد (الحداثة)؛ مما جعل شعره منفتحا على أشكال تعبيرية تخترق المعنى الجاهز»6.

ولعل هذا الغنى عامل أساس، يفسر صعوبة تأطير شعر الراحل وتصنيفه على نحو صارم؛ كما ذكر نجيب العوفي- في شهادة له- قائلا: «يصعب تصنيفُ محمد السرغيني زمنيا وجيليّا، واحتسابُه على هذا الجيل دون سواه؛ فهو «فينيق» شعري متجدد، موصول البعث والنشور باستمرار... كما يصعب تصنيفه أدبيا، واحتسابه على هذا الجنس الأدبي دون سواه؛ فهو متنقل من فنَن إلى فنَن، لكنْ يبقى الشعر ساحله وملاذه الأثير»7. إن السرغيني أديب عابر للأجيال، اقتحم بكتاباته عدة مضامير، وانفتح على مدارس وتيارات مختلفة، ولم تطردْ طريقته- لغة وأسلوبا- في الإبداع بقدْر ما تأثرت بالمحطات التي مرّت بها تجربته الشعرية. فهو أصلا ستينيٌّ، ولكنّه ظل يكتب على امتداد العقود اللاحقة إلى أن أوقفته ظروف حياته عن ذلك، وعايش أجيالا من أدباء المغرب المعاصر، وأسهم في الشعر والسرد والمسرح والنقد الأدبي وغيرها، وتأثر بعدة مذاهب أدبية وفكرية؛ بدءا بالرومانسية، مرورا بالواقعية والرمزية، وانتهاءً بالحداثة الشعرية. ولم يتعامل مع اللغة تعاملا محدَّدا وحيدا في جميع أشعاره، بل إنه مر، في هذا الصدد، بمراحل، سبق أنْ حددها هو نفسُه في حوار أجراه معه د. حسن الغُرفي، أولاها «مرحلة اللغة المباشِرة»، التي تقوم على الوضوح والاقتراب من لغة التداول اليومي؛ كما عند صلاح عبد الصبور مثلا، تماشيا مع فلسفة جماهيرية الإبداع التي سادت الأدب العربي في وقت سابق، وثانيتها «مرحلة تطويع القوالب القديمة لتعبير أكثر عصرية»، ثم «المرحلة السِّيمانْتِيّة» بتعاطيها المختلف مع اللغة الشعرية. وقد أدرك السرغيني، عقب تجريب هذه الأشكال التعبيرية، أن المراحل الثلاث قد «استنفدت أغراضها»، ولم تعُدْ لغاتها بقادرة على التأثير وإيصال رسالة الشاعر؛ فأعلن عزمه على أن يكتب شعره بـ»لغة بدائية»8، وهذا- حَسَبَه - «يعني أن العلاقات التركيبية والمورفولوجية أخذت تتشكّل في مفهومي عائقا، يمنعني من ممارسة الإبداع الشعري بالصورة المُريحة. إنّ حروف العطف وأدوات التوكيد من شأنها أن تعطِيَني طابعا منطقيا للغة الخطاب، ولكنها في الشعر تمسخ أكثر مما تبعث؛ ولذلك أكثرت من إهمالها، وعيني على القيمة (الفلاشية) للصورة الشعرية؛ فحيث تبْطل جدوى الروابط اللغوية، يُتاح المجال للصورة الشعرية أن تكون قصة معبِّرة، وألاّ تكون مركبة أو متداخِلة»9.

إن التوجُّه الإبداعي الذي سار فيه السرغيني، في أكثر أعماله الشعرية، يجعله واحدا من رموز الحداثة الشعرية في أدبنا المعاصر، يمتاز باستعماله المغاير لأغلب مقوِّمات الكتابة الشعرية، وباتكائه الواضح على آليات الانزياح والتكثيف والتعقيد والتجريب والغموض. فإذا وقفنا، على سبيل التمثيل فقط، عند هذه الخاصية الأخيرة، التي يُجْمع على رصدها دارسو شعره، فإننا نجدها- كما يقول د. بوسريف- من «الغموض المضيء، الذي كلما اشتد ضوؤه ازداد غموضا، لا ليكون إبهاما، بل ليكون استكشافا، أو معنى لا يفتأ يتشَكل، يتلعثم، أو هو في طور الكلام الدائم، لا الكلام الذي يُقال دفعة واحدة، ينتهي قبل أن تلفظ أو تلفظ منتهيا»10. وفي السياق نفسه، يقول د. محمد علي الرياوي؛ أحدُ طلبة الراحل بكلية آداب ظهر المهراز بفاس، في تصريح، خصّ به موقع «هسبريس»، بعد وفاته: «تعرّفتُ إلى أستاذي محمد السرغيني شاعرا قبل أن أجلس إليه طالبا، وهذا التعرفُ جعله كبيرًا في عيني؛ لأني لمستُ في شعره إنجازا مختلفا عمّا كان يُنشَر في سنوات السبعين بالمغرب الأقصى، وحتى بالمشرق... كان شاعرًا أعْجبْتُ بمغامراته الشعرية المتفردة، وكنتُ أرى أن شعره ليس متاحًا فهْمُه لكل القرّاء، ولكن ما به من غموض ليس غموضا كما هو مألوف عند كثير من شعرائنا الشباب، بل كان غموضًا مرتبطًا بالمخزون الثقافي الذي كانَ يستقي منه شعره. ولكي تفهمه، عليك أن تكون مثقفا ثقافتَه؛ هذا الأمرُ جعلني أحبّ شعرَه، كما أحببْتُ شعر كبار الشعراء العرب، وهو واحدٌ منهم. وكنت أرى، وأنا في بداية السبعينيات، أن هذا الشاعر، لو عاش بالمشرق العربي، لكان يمكن أن يكون اسمًا آخَرَ؛ اسمًا منتَشِرًا على الصعيد العربي... لكنّ سوء حظه أنه مغربي!»11.

إن شعر السرغيني، بكل هذا الغموض، الدالّ والهادف طبعا، يطرح تحديات على مستوى التلقي؛ لأنه لا يكشف بيُسْر عن خباياه، ولا يقدّم نفسه على طبق من ذهب- كما يقال- لكلّ من هبّ ودبّ، بل يحتاج قارئا من طينة خاصة، يملك من القدرات والآليات ما يؤهله للتفاعل معه، وسبر أغواره، واستيعاب دلالاته وأبعاده، وتذوق فنّياته وجماليّاته.

تلكم إشارات وإضاءات عن الشاعر وتجربته الشعرية الغنية، التي بوّأته مكانة رفيعة في شعرنا المعاصر، وجعلته أحد أهم المُسْهمين في تطويره وتحديثه. فهو- كما جاء في كلمة نَعْيه مَن قبل اتحاد كتاب المغرب- «صاحبُ تجربة فريدة، شديدة الخصوصية والعُمق، ظل طوال مسيرته الإبداعية وفيّا لرهان القصيدة على التجديد والمغامرة، وعلى توسيع إمكانات اللغة والصورة والرؤيا، وعلى إقامة جسور خلاقة بين الشعر والفلسفة والتصوف والأسطورة والمعرفة». ولذا، فإنه لا يمكن لدارس القصيدة المغربية المعاصرة أن يُغفل تلك التجربة، أو يقفز عليها، بل إنه ليَجِدُ نفسه مُجْبَرا على أن يتوقف عندها بالتحليل والمقارَبة، وأن يبحث في معالمها وميزاتها. ولا بد مِنْ أن نُومِئ، ونحن على مشارف إنهاء هذه المقالة، إلى أن الراحل كانت له إسهامات في غير الإبداع الشعري؛ ذلك بأنه قد أبدع في السرد، والدليل روايته «وجدتك في هذا الأرخبيل» (فاس، 1992)، وجرّب الكتابة المسرحية شعريا؛ كما في عَمَلَيْه عن قضايا التحرر في الوطن العربي، اللذين يذْكُرهما في بعض المناسبات، وهما: «التابوت والسكينة»، و«الطوطميّون الثلاثة». وخلّف عددا وافرًا من المقالات النقدية، المنشورة في صُحُف ومجلات داخل المغرب وخارجه، فضلا عن دراسات وكتب خاصة؛ مثل «الشباب ظاهرة جديدة في الشعر الحديث»، و«صلاح ستيتيه والعناصر الأربعة: دراسة وتحليل في شعره»، و«محاضرات في السيميولوجيا»، و«عن الشعر دائمًا». وترجم نصوصا ومقالات من الفرنسية إلى العربية، ونشرها في دوريات مغربية وعربية، مثلما ترجم أعمالا عن الإسبانية كذلك؛ منها مسرحية «الحبْل المتهدل أو أغنية القطار الشبح» لفرناندو أرّابال (F. Arrabal)، التي صدرت ضمن سِلسلة «المسرح العالمي» الكويتية عامَ 1986. وقدّم كثيرا من إصدارات غيره من الكتّاب، وشارك في تظاهرات علمية وفعاليات ثقافية عديدة...

الإحالات:

-1 هكذا كُتب العنوان على غلاف الديوان الأصفر، والصواب لغويا «السّبَئي».

-2 عبد اللطيف الوراري، رحيل الشاعر المغربي محمد السرغيني: حساسيّة الصائغ الحذق، موقع جريدة «القدس العربي»، ع. 2026/08/14.

-3 من حوار مع الراحل، أجراه الناقد حسن الغرفي، ونشره في مجلة «نزوى» العُمانية، ع.9، 1997، ص 153-157 (بتصرف). وللباحث حوارات أخرى مع محمد السرغيني؛ مثل حواره معه الذي نشره في مجلة «الآداب» البيروتية، ع.5/6، مج.50، 2002؛ ومثل حواره معه المنشور في مجلة «يتفكرون»، التي كانت تصدر في المغرب عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، ع.7، 2015.

-4 من حوار الغرفي مع السرغيني، الذي نشره في مجلة «نزوى»، ص156.

-5 المرجع نفسه، ص155.

-6 مقتطف من شهادة للكاتب المغربي صالح لبريني، وردت ضمن مقال د. الوراري المشار إليه في الهامش رقم (2).

-7 نفســه.

-8من حوار الغرفي مع السرغيني، الذي نشره في مجلة «نزوى»، ص154.

-9 نفسه.

-10 صلاح بوسريف، حضور بطعم الغياب...، منشور في موقع «هسبريس» المغربي، بتاريخ: 2026/08/15.

-11 التصريح ورد ضمن مقال لوائل بورشاشن، منشور في موقع «هسبريس» الإلكتروني، تحت عنوان «رحيل الشاعر محمد السرغيني يطوي مسارًا رائدًا في تحديث القصيدة المغربية»، بتاريخ: 2026/08/17.

محمد علي الرباوي

هذا هو تصور محمد السرغيني للقصيدة وتصوره للقارئ

في مطلع سنوات السبعين، من القرن الماضي، كنت شاعرا يملأه وهج الشباب، كانت الرباط تعلمني بهدوئها، وجمالها البسيط، كيف أكون مجنونا ، كنت رباطئذ معلم أطفال ، كنت وما أزال، مسكونا بالشعر ، وبالموسيقى، وبالتشكيل، كانت الأسماء الشعرية المغربية التي تملأ سمعي بهبلها الجميل هي : محمد السرغيني، وعبد الكريم الطبال، وأحمد المجاطي، ومحمد الخمار الكنوني... وظل محمد السرغيني طيلة سنوات السبعين، في ذهني، كائنا أسطوريا، لا أدري لماذا كلما ذكر اسمه استحضرت عجائب الليالي وغرائبها.. كنت أحس أنه قريب مني، على الرغم من أني لم أتلق به .. وأول نص عرفني به، وشدني إليه شدا قويا هو "رزنامة الحدس والفراسة" المنشور بمجلة أقلام ...

2

استأنفت دراستي بتشجيع من حسن الأمراني ابتداء من 1978، في 83 دخلت كلية الآداب ظهر المهراز بفاس طالبا... في هذه السنة تعرفت على الدكتور محمد السرغيني تعرفا مباشرا وكان يرأس لجنة الامتحانات، لاختيار الطلبة المتفوقين للولوج إلى سلك المكونين، دخلت القاعة، وضعت هويتي أمام اللجنة، أخذها من علمت في ما بعد أنه الدكتور محمد السرغيني، حدق في الصورة، قرأ الاسم محمد الرباوي، ثم تسلق قامتي بعينيه قائلا: "ما علاقتك بالشاعر؟ أجبت مضطربا: إنه أنا، ثم دخل في محرابه فاسحا المجال للأساتذة "عبدالله الطيب، وعبدالسلام الهراس، وإبراهيم السولامي، وعبد القادر زمامة، وفخر الدين قباوة كي يمتحنوا هذا الطالب القادم من ريحانة الشرق ... بعد نجاحي صرت من طلابه، وقتها تمنيت لو أني عرفته في سنوات

السبعين، الآن، وأنا طالب، لا أستطيع الاقتراب منه، لا أستطيع أن أسأله الأسئلة التي كانت وما تزال تلح علي، كنت أفضل أن تكون مسافة تفصلني عنه، فأنا طالب وهو أستاذ، كلما ابتعدت عنه احتراما لقدره، ولمكانته اقترب هو، أدركت في ما بعد أن الرجل، كان بغربة عميقة، إنه يتكلم لغة ما عاد الطالب يفهمها، لأن المستوى الجامعي بدأ يدخل في مرحلة الأفول....

وجمعتني به رحلة قصيرة، من فاس إلى مكناس، كان ذاهبا بسيارته ليناقش أطروحة جامعية أنجزتها تحت إشرافه الفقيدة فاطمة شبشوب ... وفي سنة 1989 أرسلت له نسخة من ديواني "أطباق جهنم" وهو ديوان يضم كتاباتي الأولى فكتب إلي سنة 1989 قائلا "توصلت بديوانك أطباق جهنم، وها أنا الآن منهمك في قراءته ...

3

ليس في قراءة محمد السرغيني لذة ، اللذة مرتبطة بالآني الفاني، قراءة شعره فيها عذاب، وهو يعي هذا العذاب، كتب إلي يوم 6 ماي 1986 يقول: "وبعد، إن ظروفا خاصة حالت بيني وبين الإجابة على رسالتك المصحوبة بديوانك، وأعتقد أن الموانع ارتفعت، ولهذا فها أنا مجيبك، متمنيا لك في البداية مزيدا من النهم الشعري، ومزيدا من الغبطة به وفيه، ليس خطأ أن يسكت المرء في وقت ازدحام الأصوات الناشزة، وتكالب أصحابها على تحصيل مقام ليسوا أهلا له، وإنما السكوت في هذا المقام حكمة، ذلك أنه انتظار أن يفرغوا ما في جبتهم من الهذر، وإذا ذاك يكون الكلام فضيلة وتصحيح مسار، وأعتقد أنه آن أول الكلام فترقبه، ولك من أخيك نفس التقدير الذي تكنه له، إن زرت فاس فزرني، وسأعذبك بقراءة ما أكتب الآن، شكرا لك على تذكرك..."

هذا هو محمد السرغيني، وهذا تصوره للقصيدة، وتصوره للقارئ.

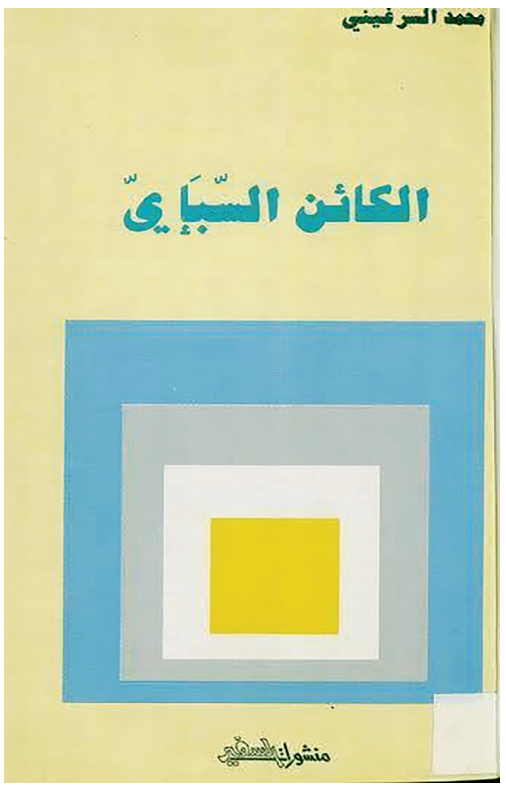

د. سعيد يفلح العمراني

محمد السرغيني.. حين يغيب الشاعر وتبقى القصيدة

برحيل محمد السرغيني، تفقد الثقافة المغربية والعربية شاعرًا وناقدًا وأستاذًا لم يكتفِ بكتابة القصيدة، بل أسهم في تغيير مفهومها ووظيفتها، وفي نقلها من مألوف القول إلى مغامرة الرؤية ومساءلة اللغة والوجود والإنسان.

كان حضوره امتدادًا لمرحلة التأسيس الكبرى التي انفتحت فيها القصيدة المغربية على منجز الحداثة العربية والعالمية، من غير أن تفقد صلتها بذاكرتها التراثية وخصوصيتها المغربية.

وُلد السرغيني بفاس سنة 1930، وتكوّن في رحاب القرويين، ثم واصل دراساته في بغداد والرباط والسوربون، فاجتمعت في تجربته روافد متباينة: التراث العربي، والفكر الفلسفي، والنقد الحديث، و السيميائيات، والشعر الصوفي، إضافة إلى تأثيرات الشعر الفرنسي والعالمي. لذلك جاءت قصيدته كثيفة ومركبة، مشدودة إلى الأرض والذاكرة، لكنها منفتحة على أسئلة الحداثة واحتمالات التأويل. وتشير الدراسات التي تناولت تجربته إلى أن ديوانه الأول لم يظهر إلا سنة 1987، بعد عقود من الحضور الشعري، الأمر الذي يؤكد أن مشروعه كان يتشكل ببطء ووعي، لا باستجابة عابرة لراهن النشر.

وإذا قارنا السرغيني ببعض أبرز شعراء الحداثة العربية، وجدنا أنه يلتقي مع بدر شاكر السياب في الإيمان بضرورة تجديد البنية الشعرية، لكنه يختلف عنه في تقليل الغنائية المباشرة والاقتراب من الرمز والإيحاء، ويلتقي مع أدونيس في جعل القصيدة بحثًا معرفيًا وتحريرًا للغة من جاهزيتها، غير أن السرغيني ظل أكثر التصاقًا بالموروث المغربي وبالروح الصوفية، وأشد عناية بتحويل الذاكرة المحلية إلى طاقة تخييلية، أما محمود درويش، فقد جعل التجربة الشعرية أكثر وضوحًا في صلتها بالهوية والمنفى والقضية، بينما اختار السرغيني طريقًا أكثر التواءً، يستبدل التصريح بالغموض الخلّاق، ويحوّل القصيدة إلى فضاء مفتوح لا يستنفده معنى واحد.

ومن هنا تتجلى خصوصيته داخل الحداثة العربية: فهو ليس مجرد صدى للمشرق، ولا نسخة مغربية من أدونيس أو السياب، بل شاعر أعاد تركيب المؤثرات في مختبره الخاص. وقد ذهب بعض النقاد إلى أن المجاطي والخمار الكنوني مالا إلى غنائية جديدة تتوازن فيها الهموم الذاتية والجماعية، في حين اتجه السرغيني إلى بناء تجربة أكثر رمزية وانقطاعًا عن المألوف.

غير أن قيمة السرغيني لا تختزل في دواوينه؛ فقد كان أستاذًا ومثقفًا وناقدًا أسهم في تكوين أجيال من الدارسين، وربط حداثة القصيدة بحداثة الوعي، وحماية الذاكرة الثقافية المغربية.

إننا لا نودّع شاعرًا انتهى أثره بانتهاء حياته، بل نودّع جسدًا، بينما يظل المشروع حيًا في القصيدة والدرس والذاكرة. فالشاعر الكبير لا يغيب كليًا؛ إذ يتحول إلى سؤال، وإلى ضوء، وإلى أثر يواصل إيقاظ الأجيال. رحم الله محمد السرغيني، وأكرم مثواه، وجعل ما أودعه القصيدة والعلم والثقافة صدىً باقيًا في ذاكرة المغرب والعرب؛ فقد غاب الشاعر، أما القصيدة فما تزال تقاوم الغياب

الدكتور محمد السرغيني ذلك الموسوعي المجهول

حسن الأمراني

ع علم من الأعلام الذين إن مددت بصرك إلى جهة من جهات الشعر، والفلسفة، والرواية، والمسرح، والترجمة، وجدته تجاهك.

وإن أنت حاولت رسم حدود لآفاقه طاولك نجمه. فضوؤه لم يقتصر على بلده المغرب، بل هو طوّاف في الأرض كالخضر، كما هو طوّاف في ميادين المعرفة.

ها هو يحاضر في الأكاديمية المغربية، كما يحاضر في مرسية بإسبانيا، معرّفا بابن عربي وابن سبعين، اللذين عاشرهما طويلا معاشرة المريد، كما يحاضر عن منازل التصوف في «فصوص الحكم» في أكسفورد، أعرق جامعة عالمية، ويحاضر في أفيلا بإسبانيا عن التصوف الإسلامي والشعر. ويحاضر في غرناطة عن منهج الإسلام في حوضي المتوسط. ويستوعب مقولات أرسطو في المنطق، ليؤسس منهجه الخاص في معالجة الفلسفة والشعر، مستحضرا الجوهر والكم والكيف والزمان والمكان والإضافة وغيرها.

وهو صاحب رأي مستقل في عدد من المقولات والمقاربات، مثل الدمج بين الفكر الإسلامي والتصوف الإسلامي. وهو لا يتردد في الجهر برأي قد يراه غيره مثيرا للجدل، إذ يقول: «إننا نعتبر النصوص الفلسفية والتصوفية اليهودية التي كتبت باللغة العربية وتحت تأثير الروح الإسلامية نصوصا داخلة في مجال مداخلتنا، لأنه يعمها ما يعم سابقتها، ما دامت هي الأخرى قد تعرضت لضغوط التأويل والتفسير والتأصيل».

وأحسب أن من يقترب من النصوص الشعرية والروائية للموسوعي محمد السرغيني يحتاج إلى أن يقرأه مزوّدا برؤيته الفلسفية والتصوفية

التي نظر إليها بعضهم على أنها «غنوصية جديدة»، وما هي كذلك.

ولكن أليس من حق المحتفى به أن نشير إلى بعض مواقفه في الحياة، ولو لمعة كلمعة البرق؟

ذات يوم، قرأت في دورة من دورات «عكاظ وجدة»، وهو حاصر قصيدة من ديوان: «سآتيك بالسيف والأقحوان»، ضمنتُ إحدى قصائده عبارة استعرتها منه، فأنشدت:

«وأوغلت حتى نعتني الطلول
وفي آخر الخطو، قبل انهياري
وجدت انتصاري
لأني وجدتك في ذلك الأرخبيل».

فقال لي مداعبا: أنت أيضا وجدتها في ذلك الأرخبيل؟

وكان قد صدر له حديثا كتابه: «وجدتك في هذا الأرخبيل».

رحمه الله وجعل الجنة مثواه.

وجدة: 3 ربيع الأول 1448، 17عشت 2016

في صَمْتِ يَرْحَلُ الشّاعِرُ

د. مصفى الشاوي

ويرحل الشاعر محمد السرغيني الناقد والمترجم والأكاديمي والأستاذ الجامعي وحيدا في صمت، والصمت لغة العظماء وملاذ الحكماء. يرحل بعد أن جسّد بحق وصدق وسبق قامة علمية شامخة، شموخ جبال الأطلس العتيدة، وشكل مدرسة قائمة الذات والبنيان، فرضت حضورها قيما وسلوكا على مدى عقود عديدة، ورسخت موروثا سيظل إشعاعه الفكري والثقافي حاضرا، فهو، وكما يشهد على ذلك القاصي والداني، يُعد رائدا من رواد القصيدة الشعرية العربية المعاصرة، ناقدا لبيبا وأستاذا جامعيا محاضرا، بكل ما تعنيه هذه الصفة في زمانه من عمق أكاديمي.

يرحل غريبا وكأنه لم يكن شيئا مذكورا، يرحل وكأنه كان يعيش في عالم غريب لم يفهمه حق فهمه، وهو الكائن السّبَئي الذي عانق في شعره المستحيل، وآمن به وراهن عليه. فهو وقبل العبور إلى الضفة الأخرى تخلّص من كل العوائق ليؤسسَ للجديد «ويكون إحراق أسمائه الآتية»، وتفقّد أثر رؤاه الشعرية، وراء هذا العالم المعطوب، نحو الغرائبي والعجيب «بحار جبل قاف»، و"من أعلى قمم الاحتيال»، حتى إذا ما استأنس بالحقيقة أعرب كأرخميدس عن دهشته بالاكتشاف «وجدتك في هذا الأرخبيل»، وهو، في ذلك، يسخر من تدنّي مستوى الوعي، وتعطيل العقل «من فعل هذا بجماجمكم»، وما فتئ يضمّن نصوصه الشعرية رسائل بليغة مشفّرة مغلفة بالرمز «وصايا ماموث لم ينقرض»، إلى «احتياطي العاج»، و«تحت الأنقاض.. فوق الأنقاض».. وغيرها من الأعمال الراقية.

كنت من طلبته، أواخر القرن الماضي، درست على يديه، وعلى يد زمرة من الأساتذة الجامعيين الأجلاء الذين شكلوا جيلا ذهبيا لن يتكرر. ولازلت أتذكر محاضراته القيمة والعميقة، بطريقته التحليلية الدقيقة، ومناقشاته المثيرة، وأساليبه العفوية والمرحة، والتي كانت تجعل الطلبة في شوق إلى حصصه المميزة. وفي أطروحتي الجامعية حول موضوع إشكالية تلقي النص الشعري المغربي الحديث، كان لي موعد مع تجربته الإبداعية، تناولتُ عيّنة من شعره، بحيث أدرجت نصوصه ضمن التجارب الشعرية المعاصرة التي تطرح إشكالية قراءتها لدقّتها وتعدد مرجعياتها.

وبعد، فإن الشهادة في حق المغفور له الشاعر الرائد محمد السرغيني مسؤولية عسيرة، يكبُرُ بها الشاهِدُ لا المشهود له وحده، لأنّه كبير في حياته وفي مماته، وموروثه سيظل حيّا بحكم قوته، وما ينفع الناس يمكث في الأرض، وصدق قول الشاعر:

قَدْ ماتَ قومٌ وما ماتتْ مكارِمُهُمْ
وعاشَ قومٌ وهُمْ في النّاسِ أمْواتُ

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له وأكرم نزله وجعل مأواه الفردوس الأعلى من الجنة.

تنوير: يقولُ «صلاح بوسريف» في رثائه لشاعر (الغموض المضيء): «غيابُ الشاعر حُضُورُه، صمتُهُ كلامُهُ، وشعرُهُ سحرُهُ، وما يكونُ كرَّسَ لهُ وجودَهُ من موْتٍ، هو، في نهايَةِ وُجُودِه، بدايةِ حياتِه، لكن، بما هو أبد»1.

محمد السرغيني ..
الرؤيا المشهد وشعرية ما بعد الحداثة

د. رشيد طلبي

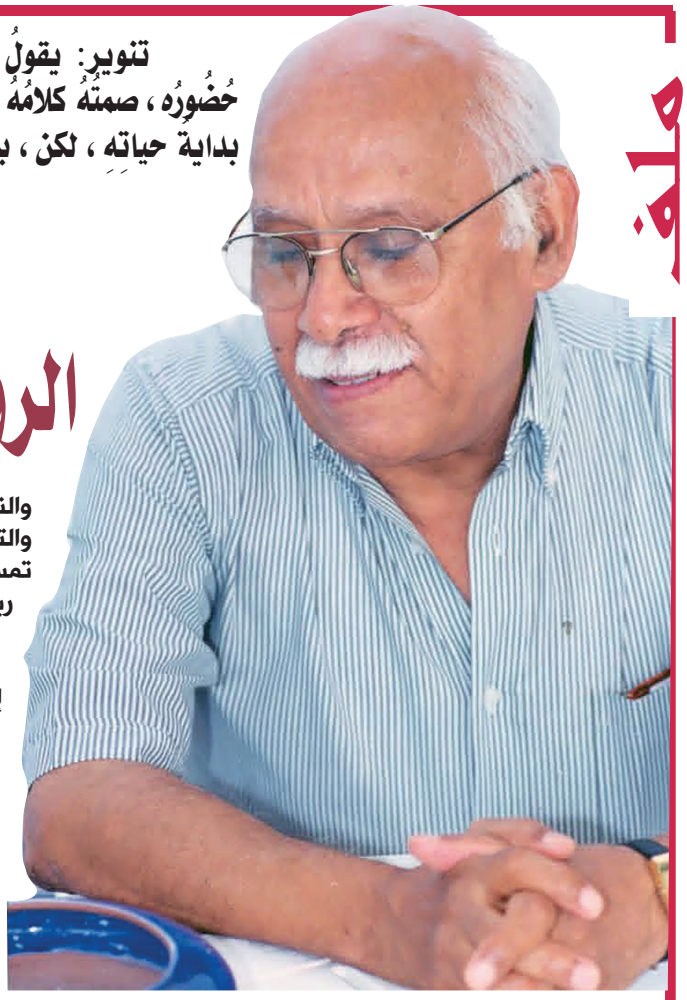

يُعدُّ «محمد السرغيني» شاعراً، على الرغم من كتاباته في النقد والرواية والترجمة والمسرح. وذلك، من خلال، عدد ليس بالهين من أعماله الشعرية؛ «ويكون إحراق أسمائه الآتية»، و«بحار جبل قاف»، و«الكائنُ السّبئي»، و«مَن فَعَل هذا بجماجمكم»، و«احتياطي العَاج»، و«تحتَ الأنقاض فوق الأنقَاض» الذي نال إثره جائزة المغرب في صنف الشعر، سنة 2013. وسبق أن حاز على جائزة أركانة العالمية من قِبَل بيت الشعر في المغرب سنة 2005.

شرعَ في الكتابَة الشعريَة منذُ أربعينيات القرن الماضي، (حوالي سنة 1948م). بنفَس شعريّ رومانسي تقليدي (أشعار ما قبل الديوان الأول)، نظَراً لتكوينه التقليدي الأوّلي، حيثُ درس بالقرويين. لكن مساره الدراسي المختلف عن سابقه، بين بغداد، والسربون التي نال فيها درجة دكتوراه الدولة سنة 1985م، واشتغاله بالتدريس في التعليم العالي، جعَلَهُ ينخرط في مضمار الحداثة الشعرية، ولم يَرْكَنْ إلى التقليدية، على غرار جل مجايليه من الشعراء، الذين رفعوا عقيرتهم الشعرية باسم الحداثة. بل عمل الرجل على خرق ذلك النظام، فبين يديه انهار جدار برلين بين الشعرِ والنثر، بل بين الأنماط الشعرية، أيضاً، نفسها. وقد أكدَ هذا ذات حوار، قائلا: «قصيدة النثر، والقصيدة التفعيلية، والقصيدة العمودية، تسميات باطلة! يُمكنُكَ أنْ تكتُبَ شعراً بابتسامة...الحواس الخمس تشتركُ في الكتابة الشعرية...يُكتبُ الشعر باللاّلغة؛ أيْ بالحواس الخمس، تُضاف إليها الحاسّة السّادسة، حاسّة الحدْس»2.

إنّ التمعُّنَ في هذه القريضة، من شأنه أن يثيرَ جدلاً محتدماً بين النقاد، بل بين الشعراء أنفسهم، من الذين ظلوا أوفياء لصاحبهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولو بطرف مما أقام عليه الشعر في نظره، وفي نظرهم أيضاً.

من هنا، تنبَجسُ، بخصوص الكتابة الشعرية لدى الشاعر «محمد السرغيني»، تساؤلات إشكالية، نظرا لما تعرفه من استغلاق، وما تتميزُ به من غموض بشتى أصنافه، وتلاوينه. وبذلك، هل كان الرجل شاعراً؟ وإلا ما قيمة كل الأعمال التي بسطها بين يدي القراء والنقاد والشعراء أيضاً. وبأي معنى هو كذلك؟ وما خصائص هذا الشعر؟

وبتعبير أكثر مُباشَرَةً، كيف يمكنُ النّفاذ إلى هذا المتن الشعري، الذي قد استَعْصَى على العديد من القرّاء والنّقّاد. ودليل هذا قلة الدراسات التي حظي بها هذا المتن. والتي خاضت فيه، لم تسْفِرْ سوى عن نفخة في رماد، ولم تمسك بجذوة الكلام الشعري، أو عما كان يصبُو إليه الرجل، ربما، أو كما أعْتَقِد...

لهذا، نحاولُ النبشَ في هذه الأرض البوار، واستنبات افتراضات لقراءة شعر الرجل، وبما يليقُ به من قيمة إبداعية، وفنية، وجمالية، لا يمكن التغاضي عنها، وفي الوقت نفسه، لا يمكن الكشف عنها منذ الوهلة الأولى، وبالمرجعيات نفسها، والإواليات ذاتها، التي دأبنا عليها نحن النقاد، في التعامل مع الشعر الذي لم يعبُر بعدُ إلى الكتابي، وهذا إن تعدّه قليل من شعرائه الجسورين.

وَفْقَ هذا السيّاق، ما سنطرحه، هو اجتهاد، وثمرة اشتغالنا على شعر الرجل في أثناء إعدادنا لبحث أطروحة الدكتوراه في موضوع (قصيدة النثر المغربية في الألفية الثالثة بلاغةُ الإبداع وجمالية التلقي 2000-2016).

بداءة، إذا كان «الغموض» قد أثار نقاشا واسعا بين النقاد، بشأن ما كتبه الشاعر «محمد السرغيني»، فإنه ينبغي الوعي بأن الأمر لا يتعلق ب «اللغة» أو بـ «الصورة الشعرية»، أو بما شابه ذلك. أو بما يطلق عليه ب «الغموض الدلالي». بل الأمر هنا يعود إلى طبيعة «التفكير الشعري»، ولا علاقة له بـ «التعبير الشعري»، نظرا لتسرب الفلسفة بشتى اتجاهاتها وخلفياتها ومرجعياتها في أفق بناء جمالية النص الشعري. مع اعتماد قطيعة، شبه نهائية، مع المرجعية التاريخية بل والواقعية أيضا، من خلال الرؤية المأساوية القاتمة التي قوامها الذات الشاعرة، عن طريق «التداعي الحر» أو ما يمكن وسْمُهُ ب «كتابة اللاوعي».

من هنا، يمكنُ الحديث عن «المُركب الشّعري» الذي يُعدُّ مزيجا من جَميع هذه الرّوافد، إلا إذا كان الأمرُ ينفلتُ من قبضة الكتابة، نظراً لضبابية الفكرة أو الرؤية الشعرية، والرجل بعيد كل البُعد عن هذا الاحتمال. وبذلك، إنّ مفهوم (المركب الشعري) هنا، ينعكسُ على مستوى الكتابة الشعرية في شكل طبقات متراكمة، ومتراكبة تستدعي بحثا أركيولوجيا متعدد المناحي والاتجاهات.

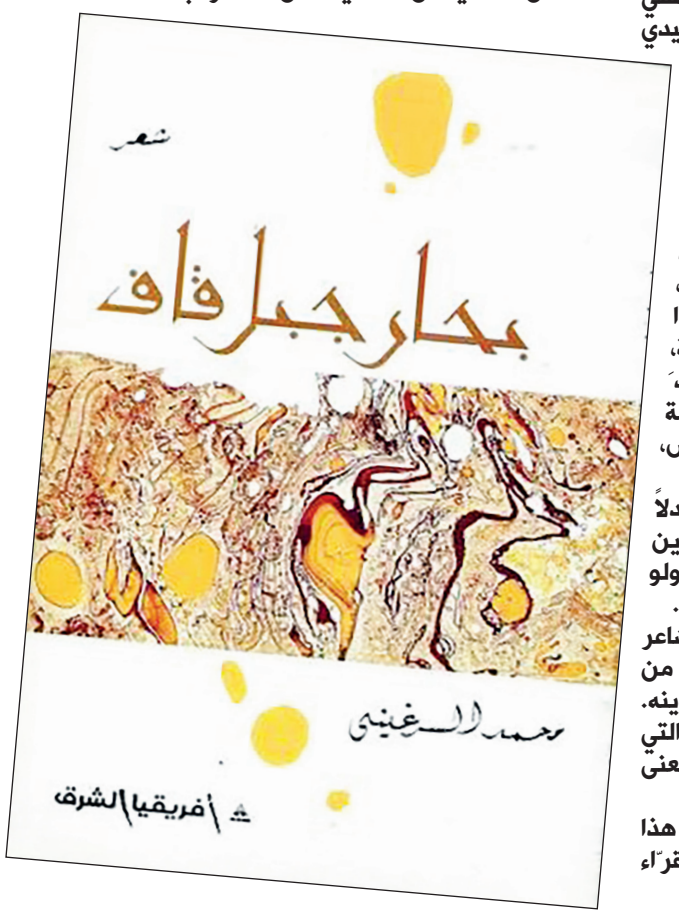

علاوة على هذا، يحضر ضمن هذه المرجعية الشعرية، المنفلتة والشائكة، مفهوم «متخيل الذات الشاعرة/ الباطنية»، حيثُ نجدُ أن النص الشعري ينغلقُ على نفسه بنفسه، نظرا للاستراتيجية التي عمدت إليها الذات الشاعرة، وهي ما يمكنُ نعته ب«الباطنية» وهي مفهوم أعمق من «التصوف» الذي نعت به بعضهم الكتابة الشعرية لدى الشاعر «محمد السرغيني». مع العلم أن هناك اختلاف واضح بين ما يمكن نعته بالكتابة «الصوفية»، وما يمكنُ نعتهُ بالكتابة «التصوفية».

يتبدى من خلال هذا المفهوم، أنّ الذات الشاعرة، تقطعُ الصلة بالمرجعية الواقعية تماما، من خلال علميات نفسية وذاتية، قوامها التأمل، والاستبطان، حيثُ إن الكتابة الشعرية هنا، وإن كانت كتابة بجميع الحواس، فهي تعمد إلى التخييل الذاتي، الذي يتجوزُ الحسّي نحو الحدسي، وهو ما أكده الشاعر من قبل (الحاسة السادسة) أو الحدس. وهذا يستوجبُ، على القارئ، أو الناقد، في أثناء قراءة هذا المتن الشعري، استحضار الحدس الشعري، باعتباره من أهم إواليات اختراق المركب الشعري.

وبذلك، تتأطّرُ الكتابة الشعرية، لدى الشاعر «محمد السرغيني» بـ «الرؤيا» عوض «الرؤية». لكن ليس المقصود بها هنا، ما دأب عليهِ الشعر العربي الحديث. بل هي «رؤيا المشهد» التي ترتبط بتخييل زمني للذات الشاعرة. وهنا يمكن استحضار مفهوم الزمن في «فيزياء الكم»، فإذا كان الزمن الماضي يتميز بالترتيب والتنظيم، لأنه في عداد الماضي، فإن الزمن المستقبلي زمن فوضوي. وهنا تعمل الذات على نقل الحاضر من نطاقه الزمني الخاص به، نحو الزمن المستقبلي عن طريق التخييل الباطني والحدس، وذلك نحو أفق الفوضى الخلاقة التي من شأنها خلق جمالية مخالفة لما مضى ولما هو كائن هنا والآن.

إن الكتابة الشعرية، لدى الشاعر «محمد السرغيني» لا يمكن تأطيرها إلا ضمن أدب «ما بعد الحداثة»، لكونها مناهضة للتمثيل والمحاكاة، ومن هنا، إذا كانت «الواقعية هي تكرار الحركات القديمة، التي تضفي عليها ألفتها تأثيرا واقعيا، ومظهراً يعكسُ الواقع. (فإن) الحداثة وما بعد الحداثة حركات وألعاب لغوية جديدة تعملُ على إلغاء التمثيلات الراسخة وتأثيرها الواقعي»3، لهذا، بقدر ما تأتي الكتابة الشعرية هنا، غير قابلة للتمثيل، بقدر ما تهدف إلى تقديم «ما لا يمكنُ تمثيله في عدم قابليته للتمثيل»4

هوامش:

1 - صلاح بوسريف؛ حضور بطعم الغياب، بوسريف يرثي السرغيني شاعر «الغموض المضيء». هسبريس. السبت 15 غشت 2026. 02:00

2 - انظر حفيظة الفارسي؛ موقع الاتحاد الاشتراكي. بتاريخ 14 أغسطس 2026. على الساعة 15:27.

3 - بيلاجيا غوليماري؛ النقد الأدبي ونظرياته من افلاطون إلى ما بعد الاستعمار. ترجمة: حنان عبد المحسن مظفر. عالم المعرفة. عدد 514. 2026. ص392. (بتصرف).

4 - نفسه.

محمد السرغيني أستاذي المقيم في الذاكرة

د. سعاد الناصر

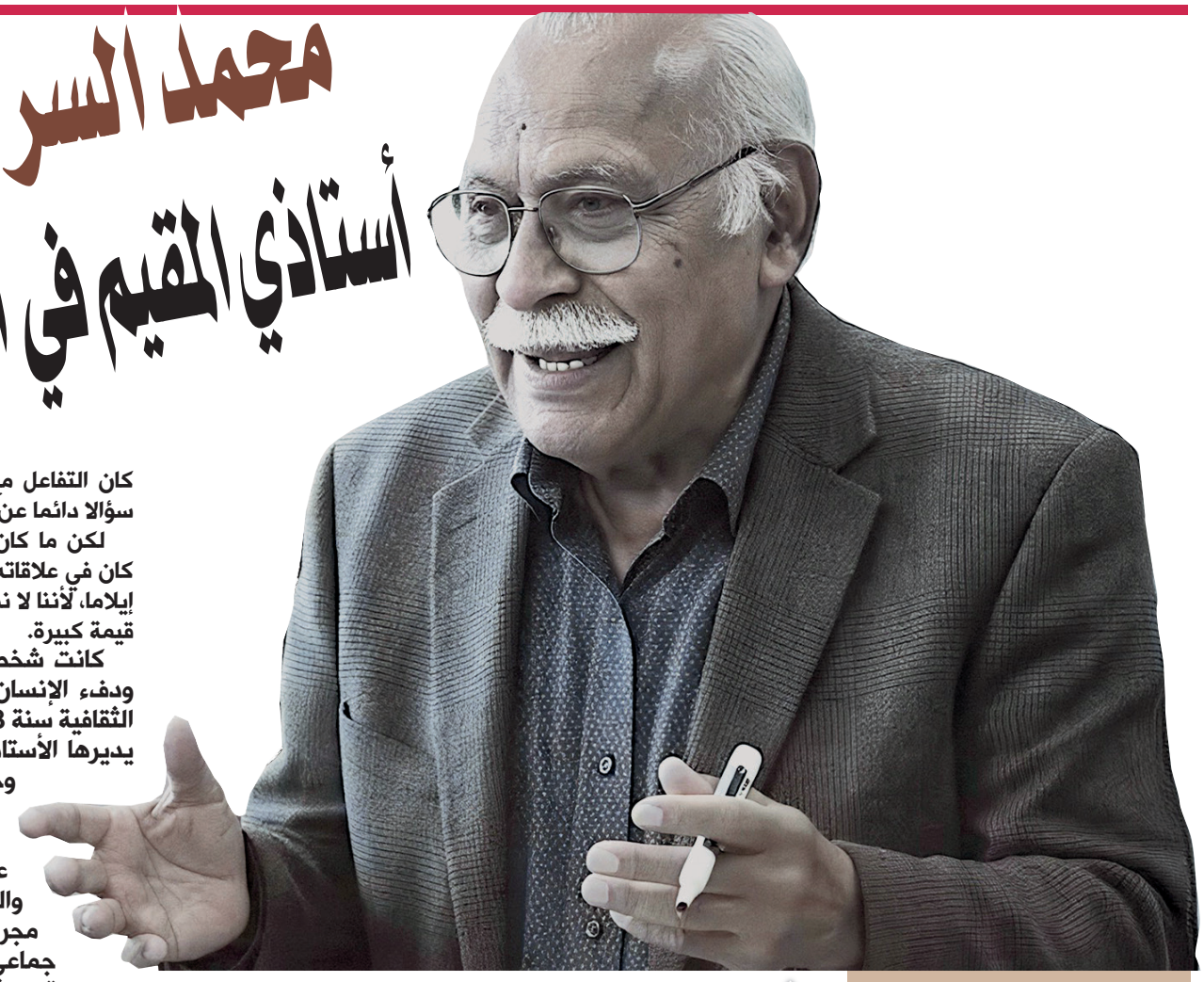

ليس من السهل أن أكتب عن أستاذنا الشاعر الدكتور محمد السرغيني في مقام التأبين؛ فبعض أساتذتنا عندما تغيب أجسادهم، لا يغيبون عن قلوبنا، وتظل صورتهم مقيمة في وجداننا بوصفها علامة تأسيس لا يمكن اختزالها في أي مقام.

والدكتور محمد السرغيني من أولئك الأساتذة الذين لا يمرون في حياة الطالب مرورا عاديا، وإنما يظلون جزء من ذاكرته العلمية والإنسانية. وقد كان لي شرف أن يكون عضوا في اللجنة التي ناقشتني دبلوم الدراسات العليا. وما زلت أستعيد، بعد سنوات طويلة، ذلك الموقف العلمي بكل ما كان يحمله من رهبة اللقاء بالأستاذ الكبير، وبكل ما كان يفتحه من أسئلة تجاوزت حدود البحث الجامعي إلى آفاق المعرفة واللغة والشعر والحداثة.

لا زالت ذاكرتي تسجل أن حضوره في المناقشة لم يكن حضور ممتحن يقدم ملاحظات حول البحث أو يختبر قدرة الباحث على الدفاع عن أطروحته فحسب؛ بل كان حضور الأستاذ الباحث والناقد الذي ينصت إلى الفكرة، ويختبر قدرتها على أن تفتح أفقا آخر للتفكير. ومن هنا بقيت المناقشة في ذاكرتي بوصفها درساً في معنى الأستاذية قبل أن تكون محطة في مسيري الجامعي

ولقائي به لم يبدأ يوم ناقشني في دبلوم الدراسات العليا؛ فقد كان اسمه يرتبط بمدينة تطوان وبذاكرتها الثقافية والأدبية. ففي هذه المدينة نشر الشاعر السرغيني منذ سنة 1947، قصائده الأولى في مجلة «الأنيس» تحت اسم محمد نسيم، في مرحلة مبكرة من تشكل تجربته الشعرية. وكان حضوره في المشهد الثقافي التطواني جزءا من زمن كانت فيه المدينة تحتضن الأدب والفن، وتفتح للقصيدة المغربية أولى نسائمها الحداثية. كان جزءا من جيل أسهم في جعل القصيدة المغربية تنصت إلى التحولات العميقة التي عرفها الفكر والشعر والثقافة، وتبحث لنفسها عن صوت لا يستسلم للماضي ولا يقطع صلته به.

وظل شعره يرافق علاقة المهتمين بالقصيدة وبأسئلة الحداثة. يجدون في تجربته مجالاً للتأمل في العلاقة بين التراث والتجديد والهوية. فلم تكن حداثة محمد السرغيني في شعره مجرد تجديد في الشكل أو خروج على المألوف، بل كانت حداثة في الرؤية والحساسية والوعي؛ تفتح للقصيدة المغربية أفقا جديدا، لذلك كان التفاعل مع شعره تفاعلا مع تجربة تجعل الحداثة سؤالا دائما عن الإنسان والعالم واللغة.

لكن ما كان يلفتني فيه، إلى جانب الشاعر، هو الإنسان؛ فقد كان في علاقاته الإنسانية نبيلا، وهذا النبل هو ما يجعل الفقد أشد إيلاما، لأننا لا نفقد شاعرافحسب، بل نفقد إنساناكان حضوره نفسه قيمة كبيرة.

كانت شخصيته تزاوج بين هيبة الأستاذ وشاعرية الشاعر ودفء الإنسان. وقد لمست ذلك حين كرمته مكتبة سلمى الثقافية سنة 2008 بتنسيق مع جريدة ملامح ثقافية التي كان يديرها الأستاذ عبد الهادي بن يسف وكنت أترأس تحريرها، وحضر تكريمه عدد من الأسماء الوازنة في المشهد الأدبي والثقافي كالدكتور محمد أنقار رحمه الله والدكتور محمد علي الرباوي والشاعر عبد الكريم الطبال والدكتور محمد إقبال عروي والدكتور نجيب العوفي وغيرهم.. كان اليوم أكبر من مجرد حفل تكريم؛ كان أشبه بتعبير عن اعتراف ووفاء جماعي لرجل من رجالات الثقافة والأدب الذين تركوا بصمتهم في ذاكرة المدينة، التي امتدت لتغطي مساحات الوطن.

ويبقى في النفس، إلى جانب ألم الفقد، شيء منحرقة عدم الاحتفاء في أرجاء الوطن بما يليق بقامة في حجم محمد السرغيني وهو بيننا. فقد أفنى الرجل عقودا من عمره في الجامعة المغربية، معلما وناقدا وشاعرا ومربيا، وترك أثره في أجيال متعاقبة من الطلبة والباحثين والمثقفين، وكان الأولى أن يُحتفى به وهو في أوج عطائه، ولا ننتظر الغياب كي ندرك حجم ما فقدناه. ولعل ذلك هو الوجع الأعمق في مثل هذه اللحظات؛أن نكتشف قيمة بعض الذين صنعوا ثقافتنا وذاكرتنا حين يصبح الاحتفاء بهم متأخرا، وحين لا يعود في الإمكان أن نردّ إليهم شيئا من الامتنان الذي كانوا يستحقونه وهم بيننا.

رحمك الله أستاذنا وطيّب الله ثراك، وجعل كل ما قدمته من علم وشعر وكلم طيب في ميزان حسناتك، إنا لله وإنا إليه راجعون.

السنة الخامسة — العدد 39

الأنيس

مجلة أدبية فنية اجتماعية

الاشتراكات: من سنة الشهر: 18 بسيطة أو 180 فرنك. ثمن النسخة: 3 بسيطات أو 30 فرنكا. جمادى الثاني 1369 — أبريل 1950

مؤسسة المرحوم محمد المراكشي. المدير محمد المجذوبة. الإدارة والتحرير شارع محمد الخامس رقم 19 صندوق البريد 17 تطوان (المغرب)

كلمة التحرير

ثقافتنا والتجديد

نشعر جميعا في هذه الفترة الزمنية التي تمر على العالم اجمع، بالخطوات التي تسير بها حركتنا الثقافية في المغرب، والنهضة العلمية المشعة بروح العصر والآمال.

وهذا يحس ويرى نتائج هذه الحركة ويتذوق ثمارها؛ وهو في تعداد امم جدل الأمراء المثقفين الذين لا يقصرون في واجبهم الادبي من حيث الانتاج والنشر حسب أذواقهم ومعلوماتهم ومزاجهم؛ يتجون باستمرار وقتنا وجدوا أمثال والتشجيع؛ إما ترضية لضمائرهم حتى لا يوصفوا بالتقصير في العمل، وإما لانساع مداركهم وحيوية قرائحهم. وهذا لا شك راجع الى ما يحمله جيل منهم من أماني وآمال سوف يتحقق البعض منها او جلها في وقت ما؛ إن هم ثابروا وجدوا في العمل.

ويلاحظ ذلك منذ ما تطالع بين الحين والآخر اسماء جديدة لا تخلو من فوائد لعلامة مصدرها. ونقرأ لاديب قطعا لجيدة وقفت مزاجه فنظرها واسعت نظرا. كما نرى الشاعر يحلي جيد خلاله بقلائده الموسيقية الوزن والنسجة المعنى يبدع في اخراجها ونسيقها أيما ابداع. لم نستغرق في خيالات القصص الذي يسبح بأرواحنا حتى تخرج عن هذا العالم بقيادة سلطان خياله الجبار الذي يجعل من الخيال حقيقة، ومن الحقيقة خيالا وسخرة. ومنهم من ذلك الفنان الذي لا يجاريهم في مذهب التسبق والتناسب واختيار الالوان.

وهكذا تتمور لنا حالة الثقافة المغربية اليوم، وهي تضم فئة صالحة من الشباب يؤدون في ميدان الادب معنة رغم انها في بعض الاحيان تطلق في غير تحديد ولا تحقيق؛ الا انها مثل وحتى، فلا يسعنا ـ ونحن ممن يحبة العاملين ـ ان نتجهم ونبدم بما يحتاجونه لانجاز الهمة التي وضعوا نصب اعينهم لتحقيق ما لهم من آمال.

واخيرا، هناك امور توجب الثقات الانظار الى هذه الحركة الادبية الجديدة التي جعلت من المتجين في حقلها يتعور الآمال نزعات وثابة لاتخاذهم مذهب التجديد مبدأ لهم والاعراض عن الماضي دون ان يتمروا بقوة هذا التاثير المحمي الذي لا يسوقهم الى التجديد القيود فحسب، بل الى التمسك بالتقليد الادبي في انتاجهم الفكرية، فاضحوا الميدان دون ان يكون لماضي نابغهم حق

محمد حَمَّاني

تجربة الشاعر محمد السرغيني في مرآة الناقد أحمد زكي كَنُّون

الشعر إبداع، والإبداع تجربة، والتجربة أنا.(1)

د. محمد السرغيني

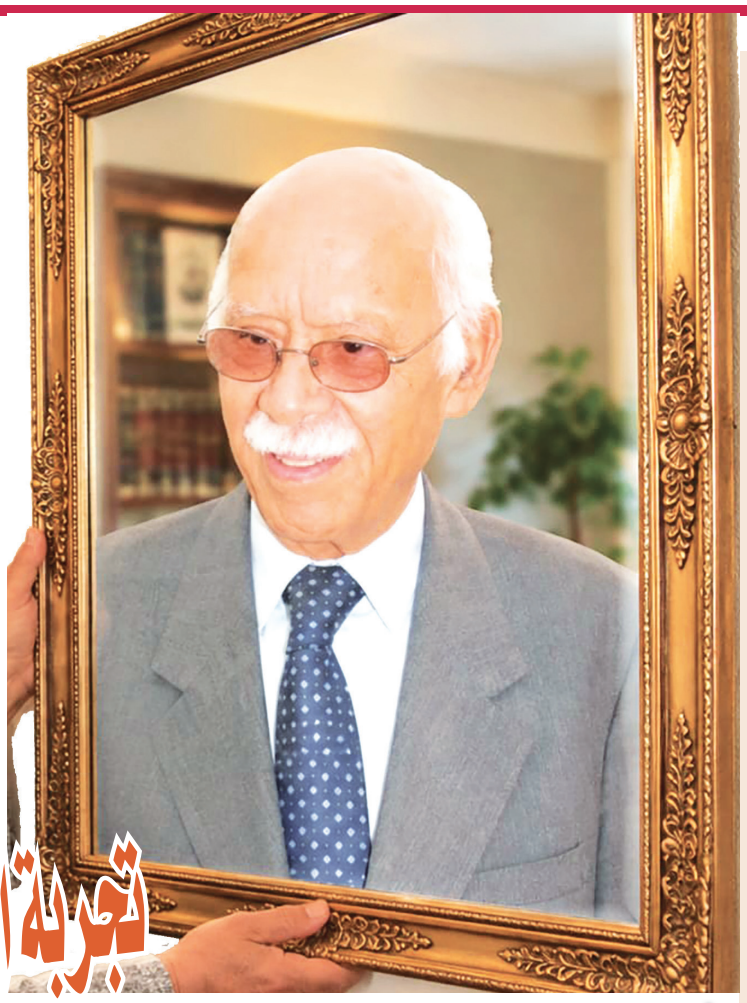

أَرْجِعُ، إلى الكتاب، لأقول: إنه كتابٌ عن «الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة». لقد تملّكتني لحظة من الصّمت، وأنا أجول ببصري بين اسمَي الرَّجُلين على صفحة الغلاف، وهما رَجُلان راحلان مقيمان! راحلان جسدا، ومقيمان أدبا. فقد قرّرت حينها أن أستأذن الجاحظ بنفض كتابه «البخلاء» من يدي، حيث كنت أقرأه لغرض علمي مستعجل! فلم أكن بخيلا- بالكتابة- حتى لا أنضاف إلى بُخلائه؛ لأن البخل بالكتابة لا يقل عن البخل بالطعام. أليست الكتابة طعام العقول والأرواح؟ فقلتُ في نفسي: لا بد من كتابة كلمة عن الكتيِّب؛ وفاءً للرَّجُلين، وأنه لا فائدة من ترك هذه اللحظة الإنسانية تَفلِتُ مِنِّي، وهي المتزامنة مع فقدان المغرب لأحد شعرائه الكِبار، هو: السي محمد السرغيني، رحمه الله.

تجربة د. محمد السرغيني في مرآة النقد

وعليه، أصرِّح بالقول: إن أستاذي الدكتور أحمد زكي كنون كان أول من عرّفنا إلى الشاعر محمد السرغيني في محاضراته التي كانت تطبعها روحُ الدُّعَابة في بعض الأحيان. فكان يشرح لنا نصوصه التي لها صِلة بالمادة، كما كان يحكي لنا عن العلاقة التي ربطته بأستاذه السي محمد السرغيني في مدينة فاس المحروسة، وكان يُعرِّج على بعض الصعوبات التي وجدها الطلابُ الذين اتخذوا من المتن الشعري للدكتور محمد السرغيني بحوثا للتخرج في سِلكَي: الإجازة والماستر؛ موضِّحا كيف أن الطلبة كانوا يقصدون الشاعرَ صاحبَ المتن المدروس ليشرح لهم شعره؛ لأنهم وجدوا وُعُورَةً في الاقتراب منه. وهذا ما عبّر عنه الأستاذ أحمد زكي كنون بقوله: «لم تكن نصوصه سهلة- وهو يشهد بذلك- ولا يقلقه قِلة قرائه لقناعته أن الشعر لا بد أن يجلله الفكر، وأن تكون المعرفة مؤطرة له- والضمير يعود على الشعر طبعا- وأن المتلقي لا بد أن يتوفر على ثقافة وفكر تماثلان ثقافة وفكر المبدع ليستطيع فهم إبداع راق!! تبتعد فيه التقريرية، عميق، ومنفتح على قراءات التأويل فيها حاضرة بقوة»(4)

يتهيّب كثيرٌ من النقاد مقاربةَ أعمال د. محمد السرغيني؛ لأنها نصوص عصية على الفهم؛ ولا بد لقارئ نصوصه من: «أن يتأمل ويجتهد في التأويل، وفي ربط الظاهر بالباطن، وأن يتأنى في حل الرموز، لأن مقطعا من نص طويل قد يأخذ من الوقت ومن التفكير الشيء الكثير قبل أن يجزم المحلل له بقوة التأويل في مقاربته مع العلم أن الجزم معارض للتأويل، وأن التحليل يكتسب موضوعية من قدرة المتلقي على التفكيك والربط، وعلى جعل الجزء مفيدا في فهم الكل، والكل مرشدا لفهم الجزء»(5)

إن العلاقة التي جمعت بينهما، جعلت الأستاذَ أحمد زكي كَنون يتقرّب بشكل قوي من شخصية الشاعر السي محمد السرغيني، ومن طريقة تفكيره، وربما سهّل عليه ذلك الطريقَ إلى مقارعة شعره في كتابه «المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر: من النكبة إلى النكسة»(6). يقول في آخر مقدمة الكتاب: «أما أستاذي وشيخي الدكتور محمد السرغيني، المعلم والصديق الدائم الشباب الفكري والحيوية العلمية، فهو صاحب الفضل الأكبر على هذا البحث، من رعايته استمد قوته، وبمتابعته استقام الكثير من اعوجاجه، فالجميل فيه له وحده أدام الله عليه رداء عافيته وجازاه خيرا عن البحث والباحثين، وشكر له جهده وإخلاصه وتفانيه في تشجيع الأعمال العلمية الجادة!! وما ختمي بذكره إلا كالمسك الذي يختم به»(7)

إن الناقد أحمد زكي كَنون يرى: «أن البحث في خصوصية الشاعر [يشكل] مدخلا مُهمًّا وأساسا لدراسة شعره، فبدون تحديدها يصعب التمييز بين الشعراء، ونقدهم بمنهجية وموضوعية»(8). وقد قارب الأستاذ أحمد زكي كنون تجربة الشاعر محمد السرغيني في عدة محطات؛ منها:

-1 محطة الجذور: إن جذور التجربة الإبداعية للشاعر محمد السرغيني نبتت في مدينة فاس، ومن فاس تشكلت هذه الجذور معلنة عن موهبة شعرية فذة: «إن لحضور فاس- المكان- في نفسه وشعره ما يسوغه، فعلى أرضها رأى النور، وفي أزقتها وحواريها حنكته التجارب الأولى، وبين حيطان كتاتيبها ومدارسها تلقى تعليمه الأول، وفيها أقام، ومارس وظيفته، وتزوج وأنجب، ومنها انطلق لإتمام التعليم وإليها عاد ليستقر

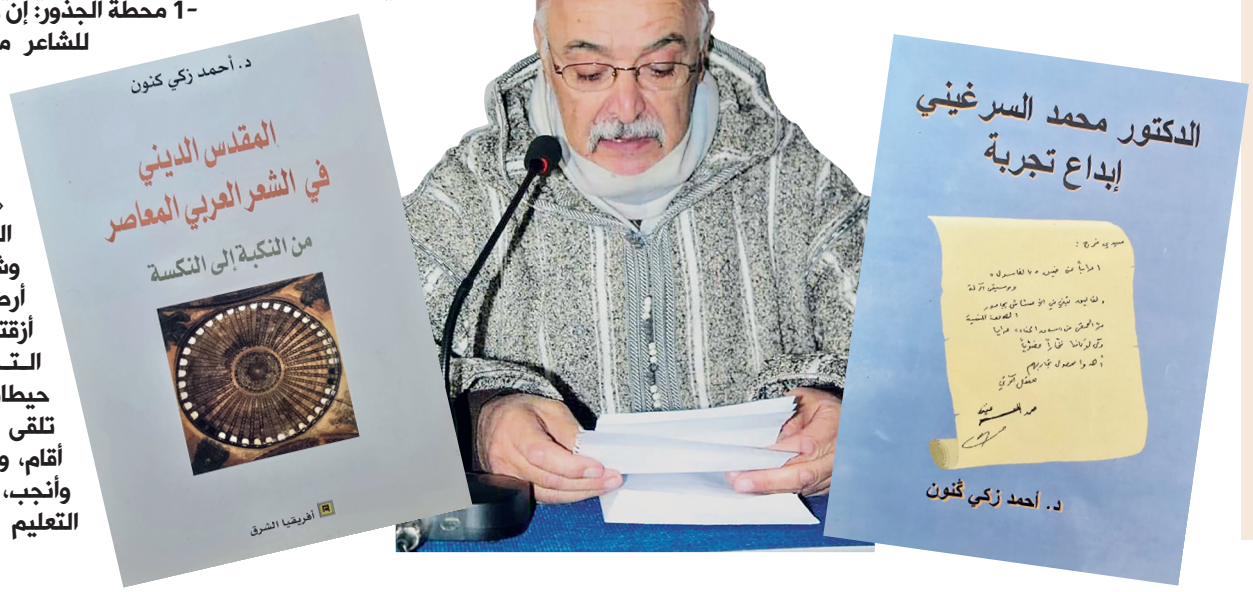

حينما زُرتُ بَلْدَتِي، ومسقط رأسي قرية «بويعقوبات/ لقصر»، الواقعة على ضِفاف نهر ملوية شرق المغرب، البعيدة عن مدينة «جرسيف»(2) بثلاثين كلم شمالا. وكان ذلك في الثلث الأخير من شهر غشت الماضي، كما أفعلُ في كل عطلة صيفية؛ تفقّدا لأهلي وأحبابي هناك، ومنهم الوالدة والوالد- حفظهما الله؛ فالعودة إلى الأصل فضيلة، كما يُقال. كنتُ من حين لآخر أراجعُ مكتبتي، الّتي أنشأتُها في فترة دراستي الجامعية بفاس العامرة، إذْ اقتنيتُ أغلبها من سوق الكتب القديمة بحي «الليدو»(3) بفاس الفاتنة.

وكنتُ في أيام غشت الفائتة أطالعُ كتابَ «البخلاء»، للجاحظ (255هـ) للاستفادة منه في بحث أنجزه، وعندما بدأت في مراجعة مكتبتي؛ لأحمل منها ما أحتاج إليه في أثناء عودتي إلى مقر عملي، بعد انتهاء العطلة؛ وقع نظري على كتاب صغير الحجم، كبير الفائدة، ولما تصفّحتُ بدايته وجدتُه مُوَقَّعًا من لدن صاحبه؛ وهو أستاذي الدكتور أحمد زكي كنون، الذي غادرنا- رحمه الله- فيما يزيد على العام والنصف، وقد كان التوقيعُ مؤرَّخا بسنة (2012) حيث كان يُدرّسنا مادة (شعر حديث) في سلك الإجازة، ضمن شعبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، بفاس.

فيها»(9)

-2محطة التجربة: كانت التجربة الإبداعية للدكتور محمد السرغيني تجربة غنية، وقد سقاها بمقروءاته المتنوعة، حتى قيل عنه: إنه كان يقرأ بالمكبرة، نظرا لضعف بصره بسبب تقدمه في السن، فهذا الحرص على القراءة شكل- عنده- تجربة فريدة، فضلا عن تجربته بالغرب (باريس)، ناهيك عن التجربة التي قضاها في الجامعة، وارتباطه الكبير بالطلبة الذين كان لهم حس إبداعي؛ لذلك: «انتقل محمد السرغيني، بعد هذه التجربة من متلق إلى ناقد يصوغ رؤية للحياة وللإنسان، بصَهره لأفكار وتصورات وفلسفات ورؤى ونظريات مختلفة بنار فكره، لصياغة موقفه وتصوره الخاص»(10)

-3محطة الإبداع: يقول الأستاذ أحمد زكي كَنون: «قد يكون من الصعب قراءة الحركة الإبداعية لمبدع ما- ومنه شاعرنا- بكل تفاصيلها وتتاليها وتواترها في مراعاة لتراتبيتها الزمنية في صرامتها»(11)

-4محطة الأشكال: يُجمِل الأستاذ أحمد زكي كنون محطة الأشكال بقوله: «إن أهم ما يميز النصوص الشعرية لشاعرنا زيادة على غلبة الفكر فيها، ومضامينها القوية أشكالها التي ترسم مسارا جديدا في الكتابة الشعرية. الذي يظنه البعض أقرب إلى النثر منه إلى ما يمكن أن نَعُدَّهُ شعرا موزونا خاصيته (استرسال)- والمصطلح من اختيار الشاعر نفسه- استرسال يعني الاستمرار في الكتابة دون مراعاة لا الأشطر، فيكون عموديا، ولا الأسطر فيكون تفعيليا، مع كونه يوزن عروضيا لقيامه على تتالي التفعيلات. وهي طريقة في الكتابة لها ظاهر وباطن، كما أنها تؤشر على اجتهاد يغري، ويحرج(12)

لقد حرَّك الأستاذ أحمد زكي كنون قناعتان في كتابه- مدار هذه الكلمة- هما:

الأولى: كان للدكتور محمد السرغيني دور كبير في تأسيس الحركة الشعرية الحداثية في المغرب الأقصى مع ثلة من المبدعين، منهم: أحمد المجاطي، ومحمد الخمار الكنوني؛ وقد تأتى له ذلك باستمرار عطائه باجتهاد وتجدد ملحوظين.

الثانية: التحول الكبير الذي عرفه مفهوم الشعر عند هذا الشاعر البحاثة، وانعكاس هذا التحول على مساره الإبداعي، مما يعطي الباحث هامشا واسعا للبحث في خصوصيته وتميزه.

اِستنهاء!

يبقى الدكتور السي محمد السرغيني صوتا شعريا متفردا، ومثقفا رزينا أدى واجبه الإبداعي نحو أمَّتِه، وغادر في صمت، كما غادر كثير من الكبار. وإنه من واجب النقاد أن يتلقّفوا آثاره بالقراءة، والبحث، والتأمل!

هوامش:

(1) اُنظر: المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر: من النكبة إلى النكسة، د. أحمد زكي كنون، أفريقيا الشرق، ط.1، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص. 36.

(2) جرسيف: لفظة أمازيغية تعني: بين نهرين أو ضفتين؛ لأن نهر ملوية، وهو من أطول أنهار المغرب، يلتقي بنهر مللو في مدينة جرسيف.

(3) سوق الليدو: مكان لبيع وشراء الكتب المستعملة، يقع بحي شعبي، هو حي الليدو الكائن بالقرب من كلية الآداب ظهر المهراز، فاس. وله اسم مشهور هو «الحُفرَة»، لكونه واقعًا في منحدر.

(4) أحمد زكي كَنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، مطبعة آنفو برانت، الليدو، فاس، 2008، ص. 8.

(5) أحمد زكي كنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، م. سا. ص. 30.

(6) الكتاب- في أصله- أطروحة جامعية أنجزها بإشراف د. محمد السرغيني؛ حيث يقول د. السرغيني في آخر التقديم، الذي خصَّ به الكتاب: «وبعدُ، فهذه خلاصة قراءتي لهذا الكتاب الشيق الذي له موضوعه البكر، ومن تقسيماته وتفريعاته ما يقرّبه من الوضوح ويبعده من الغموض، ولذلك يصح أن ألتمس من المؤلف أن ينصرف في المستقبل إلى اصطناع المنهج نفسه في دراسات مفردات، كل دراسة تخص شاعرا بعينه، ذلك بأن عملا مثل هذا يمكّن الباحث والقارئ من معرفة خصوصيات المقدس التي تختلف من شاعر لآخر في التناول وفي الفهم، وفي درجة التوظيف»./ المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر: من النكبة إلى النكسة، د. أحمد زكي كنون، أفريقيا الشرق، ط.1، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص. 9.

(7) أحمد زكي كنون، المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر: من النكبة إلى النكسة، م. سا. ص. 17.

(8) أحمد زكي كَنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، م. سا. ص. ص. -14 15.

(9) أحمد زكي كَنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، م. سا. ص. ص. -14 15.

(10) أحمد زكي كَنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، م. سا. ص. 38.

(11) أحمد زكي كَنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، م. سا. ص. 45.

(12) أحمد زكي كَنون، الدكتور محمد السرغيني إبداع تجربة، م. سا. ص. 48.

ملف

الشاعر محمد السرغيني.. ملحمة رجل أشهر وعيه

د.الزهرة حمودان

في البدء أشهر وعيه؛ حين قال وهو ما زال شابا يعانق شعرية الرومانسية، بصفتها ثورة على المادية الصارمة:

عذبتنا السنون تحت ضوء الشمس
علمتنا الشجون كيف نحني الرؤوس

وقبل أن يشهر وعيه العضوي/المتفائل لا الشقي شعرا، شد الرحال شرقا وغربا، دارسا أكاديميا، ومساهما في جدلية حداثة القصيدة العربية المعاصرة، ومدى أواصر تفاعلها مع التراث الفني للشعر العربي الأصيل، في الرؤية واللغة والإيقاع، وغيرها من القضايا الفنية، والجمالية، والمضموناتية.

متأبطا زوادته المعرفية، استمر في إشهار صوته المعرفي، من خلال شعره، وأبحاثه في الفكر والنقد والفنون، منها الرسم، والفلسفات الصوفية. كان يدرك أن السدول سوداء وكثيفة. أي نعم أن الشاعر أمعن في التفاؤل، بقدر ما تخلصت المدن من وجومها، وعماها، إلا أنه سافر وخاض غمار نضال الحداثة الشعرية في المغرب والعالم العربي، وبنفس الحماس الهادئ المتفائل، يشق طرق الفكر، والأدب، والنقد بين العوالم الثقافية شرقا وغربا، بعد أن كان قد وضع أساس المعرفة لديه بلبنات أصيلة مقدودة من صرحين علميين عتيدين؛ هما جامعة القرويين، ثم جامعة محمد الخامس.

وكان على مستوى تفاؤله البراغماتي،ما رأيته منه في ثمانينيات القرن الماضي- وأنا طالبة بسلك الإجازة - برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل- جامعة عبد المالك السعدي- عندما كان سؤال الحداثة يذكي حماس الشباب الطلائعي حينذاك، وهو يتفاعل مع أسئلتهم المستفزة مبتسماً، وكأنه يمد لهم يده بعقد معرفي فكري إبداعي، يقوم على بند يفسر كل ما يذكي وهج السؤال لديهم، يقول: «بإمكانك أن تكتب شعرا بابتسامة».

وبنفس الشغف والولع، كنت تجده يتابع خطوه نحو التجديد في الشعر كما في الفكر، كما في الشأن الثقافي بفنونه، وشتى روافده الجمالية والروحية إلى حد التصوف، ولعل هذا ما بدا جليا في كتابه «Esotérisme et Peinture abstraite» كدراسة نقدية قدم من خلالها عمق اهتماماته الفكرية، النابعة من رصيده المعرفي في كل من الفلسفة والتصوف والفنون التشكيلية، مما يعني أيضا أن الراحل كان، إلى جانب نفسه الشعري الملتهب، يتكئ على ثقافة واسعة ومتشعبة اغترفت كذلك من الفلسفة الإسلامية، ولعل أطروحة دكتوراه الدولة من جامعة السوربون حول الفيلسوف المتصوف ابن السبعين، أغنت الجانب العرفاني لديه ، ولذلك كان الإبحار في مسار الراحل محمد السرغيني، رحلة غنية بأبوابها المعرفية، تفسر غزارة وتعدد وتنوع حقول الكتابة لديه. اللهم احتسبها من صدقاته الجارية.

في صُحبة سِّي السَّرغيني شاعراً وإنساناً..

د. خالد التوزاني
أستاذ الأدب المغربي والأندلسي، جامعة مولاي إسماعيل- مكناس

تعود صلتي بالشاعر الدكتور محمد السرغيني إلى عام 6002، عندما قررت متابعة دراساتي العليا في ماستر التصوف في الأدب المغربي؛ الفكر والإبداع، والتي كان قد أسسها الدكتور عبد الله بنصر العلوي وتابع مسيرة الإشراف على تنسيقها الدكتور عبد الوهاب الفيلالي، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، فقد كانت حصص الأدب المغربي، وخاصة مادة «الظواهر والقضايا» في هذا الأدب، تستحضر تجربة الشاعر محمد السرغيني، إلى جانب تجارب أخرى استلهمت التراث الصوفي في إبداعاتها، وكان إعجابي بهذا الشاعر كبيراً، لأنه جمع بين التكوين الأكاديمي في أعلى مستوياته، وبين الإبداع الشعري في أعمق تجلياته، فلما التقيت به في مدينة فاس، زاد إعجابي بشخصيته الإنسانية والعلمية، ثم توالت اللقاءات به في سياقات مختلفة، بعضها مع أصدقاء نقاد وشعراء، كنا نزوره للاطمئنان على صحته، وبعض الزيارات كانت من أجل استشارته في بعض الأعمال النقدية والإبداعية، وكان رحمه الله يرحب بزياراتنا، ويتصرف بمحبة و بتلقائية دون تكلف أو تصنع أو توجس، وكانت دائرة اللقاءات تتسع في بعض الأحيان لزوار جدد من الطلبة الذين كانوا يرافقوننا، وكان الأستاذ الشاعر محمد السرغيني يرحب بالجميع ولا يتردد في إبداء النصح والتوجيه بحكمة وعبارات دقيقة تدل على سعة معرفة هذا الأديب، ليس المعرفة الأكاديمية فحسب، ولكن معرفة أدق تفاصيل الحياة المغربية في عمق المجتمع، كما يدل على ذلك استحضاره أثناء حديثه كثيراً من الأمثال المغربية المغمورة، والحكم العربية النادرة، والتي يأتي بها في سياق تعزيز بعض مواقفه، وكنا نزداد إعجاباً بشخصه وانبهارا بموسوعيته وجمال الجلسة في حضرته..

والحق أن هذه الانطباعات التي كان يتركها هذا الشاعر في نفسي وفي نفوس كل من يلتقي بهم، كانت انطباعات معبرة عن شخصية منسجمة مع نفسها، فالرجل كان يعيش تجربة الحياة ببساطة تدعو للإعجاب ويتعامل مع الأشياء دون أي قلق أو خوف، كان شديد الصراحة والعمق، في فكره جرأة قلما نجدها في مجتمع المثقفين، ولعلها جرأة دفع ثمنها في عزلته الطويلة وابتعاده عن الأضواء، فهو وإن كان يحضر بعض اللقاءات العلمية، إلا أنه كان مُقلا في هذا الشأن، وخاصة بعد انتهاء فترة عمله بالجامعة..

راكم الشاعر المغربي الدكتور محمد السرغيني تجربة طويلة استغرقت حوالي ستين عاما من الكتابة الشعرية، حتى إن أعماله الشعرية الكاملة صدرت في أكثر من ألف ومائتي صفحة، وهناك نصوص لم يتم إدراجها في هذه الأعمال، بحيث بقيت في صفحات كثير من الجرائد الوطنية والعربية، حيث يعد هذا المبدع من جيل التأسيس وشعراء الطليعة في المغرب، فقد حاول تجاوز القصيدة العمودية، وتعزيز تجربة الحداثة الشعرية، ودافع عن هذا التوجه، ولم يتردد في الجهر بمواقفه النقدية..

لا أتحدث عن مولده بفاس، ولا عن مساره العلمي والأكاديمي، فهو معروف عند المثقفين المغاربة، إذ يكفي القول بأنه كان وراء تكوين أجيال من الباحثين الكبار اليوم، والذين تتلمذوا على يديه في مدرجات الجامعة، وتأثروا بفكره وشخصيته الفذة، ويكفي القول بأن جيرانة ومجتمعه الصغير بمدينة فاس يكن له احتراما كبيرا وتقديرا عاليا، لما كان يتسم به من دماثة الأخلاق ورقي السلوك.. من تواضع ورفق ولين..

تنوعت اهتمامات الدكتور الشاعر محمد السرغيني، فقد كتب في الإبداع والنقد، وفي الترجمة والفلسفة والمناهج، لكن غلب عليه الشعر أكثر، وخاصة شعر الحداثة في المغرب. ونال العديد من الجوائز منها جائزة الأركانة العالمية عام 2004، وجائزة المغرب في صنف الشعر عام 2013.. وانتشرت مؤلفاته ونصوصه بين الباحثين وعموم المثقفين.. فكان حضوره في الساحة الثقافية المغربية قوياً.

الشعر عند السرغيني ممارسة للحياة

للدكتور محمد السرغيني رؤية خاصة للشعر، فمن خلال بعض الحوارات التي أجراها معه بعض النقاد، يدافع عن الشعر باعتباره ممارسة للحياة، فهو أداةٍ معرفة قبل أن يكون نصّاً، لا يُعرَّف بالوزن أو الصورة أو الطول، بل بمدى قدرته على تعرية الواقع، وهو ما يتطلب من الشاعر امتلاك حاسة سادسة، هي الحدس؛ أي: القدرة على اختراق المألوف والوصول إلى عمق الأشياء، لذلك يرفض كل محاولة لحبس الشعر في قالب جاهز.

تغدو القصيدة عند محمد السرغيني كائناً حيّاً قابلا للنمو والتغيّر، فهي: «نسق مفتوح يُعاد صياغته مع كل قراءة؛ وعن طريق المراجعة تتحسن جودة النص الشعري، ولا يجوز تقليد قصائد سابقة، فالإبداع شرط مهم، وفي هذا الإبداع تتداخل الأجناس، إذ كل ما تكتبه من دواخلك فهو أدب».

إن هذه الرؤية للإبداع الأدبي، جعلت السرغيني منفتحا على كثير من الآداب والفنون واللغات، فقد استفاد من دراسته بفرنسا، لينهل من الآداب الأجنبية ما يدعم به كونية رؤيته، وينسج معالم تجربته في الحداثة الشعرية، بالتركيز على ثلاثية العقلانية والكتابة والدلالة، يقول محمد السرغيني: «إن مفهومي للشعر يجمع بين عقلانية الأدوات وغنائية الدلالة وهاجسية الكتابة، ولذلك فما يهمني من هذه الكتابة هو أن أكتب وأكتب وأكتب، أما التصنيفات التي كثيرا ما تكون اعتباطية، والتقييمات الإيديولوجية والفهم المبتسر السريع والتأطير المنبري والتهافت على موائد البدع الشعرية وتبني المناهج الجديدة بدون كبير فهم لها، والتهافت على النشر والطباعة، فذاك آخر ما آبه له، إنني أحب الشعر حبا صوفيا، وأكتبه بنفس الحب، وأزهد زهدا حاسما في ما عدا هذه الكتابة».

أما وظيفة الشعر عند السرغيني، فهي أخلاقية قبل أن تكون جمالية، لأن مهمة الشاعر تغيير العالم لا مجاراة الذائقة، أي أن الشعر ليس فقط نصا يكتب، وإنما هو موقف يعاش؛ يكتب القصيدة كي يُعبّر عن قضايا المجتمع وهمومه، ويعيد تشكيله أدبياً.

يقول السرغيني: «في إمكان الشعر أن يخدم قضايا الإنسان إذا تنازل عن نخبويته وعن خصوصية الفعل الشعري فيه وتبنى مكونات الخطاب اليومي المنطوق غير المكتوب، وفيما عدا ذلك، يبقى الشعر ذلك العالم الغامض الذي يحب لذاته دون أن تعرف دواعي الميل إلى حبه هذا».

إن عمق هذه الرؤية الإبداعية عند محمد السرغيني هي ما تجعل نصوصه تستعصي على القراءة، إذ تتطلب ثقافة موسوعية وعقلا قادرا على استيعاب الآخر وتفهم الاختلاف، ضمن سياق التسامح وتعزيز المشترك الإنساني، بحثاً عن ما هو كوني يوحّد الإنسانية، وكما يقول محمد السرغيني: «إنني أعقلن اليومي وأوظفه من أجل البحث عن سيرورة مستقبلية له، وهكذا يتحول معي إلى أداة تساعدني على الوصول إلى الحضاري وإلى الكوني».

التراث والحداثة عند السرغيني

تحضر اللغة التراثية بشكل مكثف في النصوص الشعرية لمحمد السرغيني تهندس القصيدة وتعطيها بعداً جمالياً، فهل تستطيع هذه اللغة أن تستوعب المواقف الفكرية والفلسفية بكل تعقيداتها؟

يجيب شاعرنا عن هذا السؤال بقوله: «كيف يمكن أن نحكم بالتراثية على مجموعة من الألفاظ وظفها التراث، إن القضية قضية إعادة التشكيل الدلالي لهذه الألفاظ، إنها بعبارة أدق موظفة توظيفاً جديداً على أن تبقى لها من الماضي صيغتها الإحالية. ولذلك، لا يكفي انتساب اللفظة إلى استعمال ماضوي كي تكون تراثية، وإلا ففي هذا المجال يعتبر المتن اللغوي كله تراثياً، إذ ما من لفظة (باستثناء المكتشفات اللغوية المستعارة من اللغات المهيمنة) إلا ولها موقعها التراثي، فنحن الآن نستعمل نفس القاموس الذي استعمل في الماضي، إن الشحنة الدلالية هي التي تجعل مما يبدو تراثيا في ظاهر الأمر، غير تراثي في حقيقته».

وهكذا، يركز السرغيني على الدلالة الجديدة التي تنسجم مع تطلعات الإنسان المعاصر، ذلك أن اللغة واحدة متوحدة، والاختلاف يكمن في المعاني، يقول شاعرنا:

«إن القيم الثقافية الماضوية تصبح معاصرة حين يتبناها المعاصرون، لأنهم يلغمونها بمعاصرتهم. يضاف هذا إلى أن التأسيس لابد وأن يتخذ له أرضية يقف عليها، وإلا فلا يمكن أن تبنى القصور على الرمال. القطيعة إذن غير ممكنة على الإطلاق، وكل الذين يدعون إلى إحداث هذه القطيعة، ينتهون في الأخير إلى الوقوع في ما هربوا منه».

ولذلك عندما تحضر اللغة التراثية في قصيدة محمد السرغيني فهي تحمل دلالات معاصرة تنسجم مع السياق الجديد، فلا ينبغي أن نبحث عن المعنى في الماضي بقدر ما ينبغي أن ينهض التحليل على استنطاق المعنى ا لمغاير، والذي يأتي غالباً في صورة تأملات في الذات والوجود والعالم، لنقل التناقضات التي يحفل بها عالمنا اليوم، ويمكن أن نستحضر في هذا السياق ديوان: «ويكون إحراق أسمائه الآتية»، وتحديداً هذا المقطع:

المشمول بكمون الرماد

ويعلك إعجابه بأنامله كلما جبل الطين (إن الخنازير نيئة في قوالبها يتقاطر منها الرذاذ) احترس من هروب الدخان. احترس من نفاذ البلاغة. لا تحسبن القميص القصير المشجر أسئلة. هو موت المسافة في الأسئلة .

إن تحول النار المحرقة إلى رماد، إشارة إلى الفناء، وإلى الوصول حيث تموت المسافة، عندما يبلغ المرء مرحلة الفناء أي طمس الذات، ففي الاصطلاح الصوفي يشير الحرق إلى «أواسط التجليات الجاذبة إلى الفناء التي أوائلها البرق وآخرها الطمس في الذات»، وهو ما يفسر توظيف السرغيني في هذا الديوان لحقل معجمي مرتبط بالحرق؛ حيث نجد الدم والنار والحرق والرماد ثم الماء، ترد بهذا الترتيب لتشكل مداخل للرؤية الشعرية عند السرغيني.

نجد للدخان مكانة في قاموس اللغة الشعرية التي يستعملها السرغيني، فالدخان عنده يماثل «نفاذ البلاغة» وعجزها في يد صانعها البليغ و»هروب الدخان» من أمومة النار التي أنجبته، هذا الهروب مستمر في تأملات السرغيني للنار وتحولاتها، فمشاهدة النار هي مشاهدة للدخان، كما أن غياب النار هو غياب للدخان، ولذلك فإن انقطاع الدخان علامة على الموت؛ موت النار، ولا يحتضر الدخان إلا باحتضار النار، نقرأ في قصيدة أخرى للسرغيني:

موطئ القدمين بين الماء والنار
والماء غير النار
والنار غير النار
برد وتعقبه الحرارة

ففي هذا المقطع يقيم شاعرنا تقابلا بين عالمين متناقضين؛ وجود النار ووجود الماء، وحياة النار تكمن في ابتعادها عن الماء؛ إذ لا اشتعال لها في حضرة الماء، ومن ثم، فإن الاشتعال يكون في النار وبها، كما أن الانطفاء والطمس والغطس يكون في الماء وبه، ولا يكتفي السرغيني بهذا التقابل، بل يقوم بتوليد دلالة أخرى تتعلق بالحرارة والبرودة، للنار حرارتها وللماء برودته، وكأن الشاعر في هذه اللحظة الشعرية يشعر بالتوجس من هروب الدخان، أي خوف نفاذ البلاغة أو القدرة على التعبير، ولذلك فهو منجذب إلى حرارة التجربة التي يريد لها البقاء والدوام، غير أن الخمود والفتور يهدد دوام التجربة في حرارتها، فتصبح تجربة الشاعر بمثابة اعتراف ضمني بحقيقة التضاد، والتعبير عن خوف وجودي من الفقد، فتتحول التجربة إلى ذاكرة، في حين يطمح شاعرنا إلى استشراف المستقبل، لكن التضاد أو التناقض الذي يعيشه يبقى تحديا كبيرا، خاصة في العالم الثالث، يقول محمد السرغيني في بعض الحوارات التي أجريت معه:

«إننا نحن المنتمين إلى العالم الثالث، نعيش تناقضاً يدّنا، لأننا نتفق جميعاً في أن لنا مواض تجبرنا على الالتفات ونحن نسير، ولأننا كذلك فنحن موزعون بين شكل معاصر وجوهر ماضوي، تلك إذن خاصية نحن مطبوعون بها وفي إطارها وُلدنا كثيراً من المفاهيم كالتراث والإصالة والتفتح، وكثيراً من المقولات كالقومي والأممي والإسلامي، ولذلك فهذه الازدواجية قدرنا وإطار لتفكيرنا الإيديولوجي والإبداعي. على أنها ليست شرا كلها، إذ يكفيها من المزية أنها نبهتنا إلى خصوصياتنا التي تميزنا عن الآخرين. إذا كان الأمر كذلك، فسلوكي الشعري وأنا أنتمي إلى بلد من بلاد العالم الثالث، يعكس بالضبط واقعي العام، وهو واقع يسير أماما ويلتفت خلفا».

ولا شك أن العودة إلى تصريحات الشاعر في سياقات تتعلق بتوضيح مسارات تجربته الشعرية ومواقفه النقدية من بعض القضايا الأدبية، تكشف عن كثير من خصوصية تجربته الإبداعية، وتقدم مفاتيح لفهم نصوصه، ومن ذلك ارتباطه بالتصوف والصوفية فكرا وإبداعا، بشكل يعيد فيه صياغة الفكرة الصوفية بصورة فلسفية مغايرة، بغية إنتاج دلالات جديدة، في سياق معاصر، ولذلك فقد كان صوت هذا الشاعر مغايراً لكل الأصوات الشعرية التي عاصرته أو جاءت بعده.

وخلاصة القول: إن تجربة السرغيني الإبداعية هي تجربة إنسانية بالدرجة الأولى، فقد جعل العلم والمعرفة طريقا لاكتشاف حقيقة العالم والأشياء، فضلا عن فهم الإنسان.

النص للشاعر المرحوم محمد السرغيني تحت عنوان «أخطاء الحركة» ، من ديوانه «ويكون إحراق أسمائه الآتية»

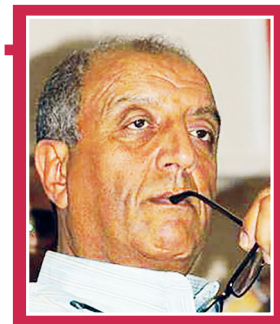

بريشة: مصطفى أجماع

يلوح المسافر في أخطاء الحركة لسماء

محمد السرغيني

بالرّئة اليُمنى، فتقفو العربة
أثره وتنضح الفحيح باليسرى. الرقاب عرقا تسيل، والنتونة تنفر النّاس من
الضّلالة خلفك. الرقاب عرقا تسيل. أشهى لحظة يُحاصر المعلوم فيها
شبق المجهول. ﴿إن خطأ الصفرة في صوابها﴾

يَـــا أيُّهَا المُسَافِرُ

مَنَعَتَنِي حَيّاً مِنَ الفَيْءِ الّذِي مُنِعْتُ مِنْه مَيتاً.
لكن عرضك
الذي يقي تحت رحمتي.

المسَافر

بمن أحب داخل الصفرة أو خارجها
ويختم المنديل
بأحرف اللّين الّتي يطابق الحال بها بالمقال :
﴿الواحد اثنان﴾ تقول الحركة .
و﴿ العَدَد الفَرْدي زَوْجي ﴾تقول العربة
أحببته حبين
﴿الهَجْوُ بِالْمَجَانِ وَالْمَدِيحُ بِالْمُقَابِلِ﴾
فكيف يأتي البين
من حبيبين اثنين ؟